مناپت الحنظل والشيء الذي ينأى

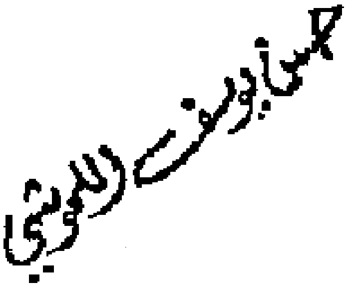
قصص



عمر أبو القاسم الككلي

مجلس الثقافة العام

حصري أبو يوسف الليبي



متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

منابت الحنظل

و

الشيء الذي ينأى

منابت الحنظل
و
الشيء الذي ينأى

قصص قصيرة

عمر أبو القاسم الككلي

الناشر
مجلس الثقافة العام

اسم الكتاب	منابت الحنظل
اسم المؤلف	عمر أبو القاسم الككلي
سنة النشر	2006م
رقم الإيداع	6951
الترقيم الدولي	9 - 076 - 38 - 9959

تصميم الغلاف	علي العباني
لوحة الغلاف	خالد الصدّيق
التنفيذ الفني	عاطف الأطرش - نجلاء المنقوش

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات - سرت

هاتف 002185468622 - بريد مصور 002185473161

فرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار

هاتف 00218214449894 - بريد مصور 00218213335388

ص ب 2764 طرابلس

فرع بنغازي - الفويهات الغربية - الطريق الدائري الثاني

هاتف 00218612241577 - 00218612241578

بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي

بريد إلكتروني - LCC2_2005@Yahoo.ca

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

(حقوق الطبع والترجمة محفوظة)

تنفيذ الطباعة

القاهرة ت 0020123140315

إلى صديقي الأثير جداً:

د. نوفل نيوف،

أديبا وإنساناً،

الذي استفدت منه، على الصعيدين،

أكثر مما قد يظن.

عمر أبو القاسم الككلي

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

أثناء شرب الشاي

حادثة الشرفة المقابلة:

تلقاه، مع انفتاح الباب، صمت ثقيل جاف، كان ابنه، الذي تجاوز السنة، يندفع ناحية الباب لاثغًا: «بابا.. بابا..» فور سماعه حركة المفتاح في القفل. في الأيام الأخيرة صارت أمه سرعان ما تهب خلفه وتحمله، رغم الصراخ والرفس وضربه رأسه على صدرها، لاجئة به إلى حجرة النوم.

أغلق الباب، خلع حذاءه قرب العتبة، ودخل مخوضًا في خشونة الصمت وخضخضة الهواجس. لعل زوجته عند إحدى الجارات، أو لعلها تركت البيت فارة بالطفل. لابد أنها تركت رسالة في مكان ما تخبره فيها بقراره ومخططها. لم يكن متعجلاً العثور عليها. وضع الكيس ومفتاح السيارة ومفتاح الشقة فوق المنضدة الموجودة في الردهة. بالكيس خبز، إضافة إلى زبادي وجبنة وعدد من البالونات لابنه. دائمًا تأخذ زوجته المفتاحين وتضعهما في درج معين من أدراج خزانة المطبخ، وتضع الأشياء الأخرى حيث يجب أن تكون. وكثيرًا ما تفعل ذلك مع وابل مركز من اللوم والتوبيخ على

عدم عنايته.

ذهب إلى الحمام ليغسل يديه ووجهه وقدميه.

انتقل إلى غرفة النوم ليبدل ملابسه.

لاحظ اختفاء ملابس زوجته وكل أشيائها..

دخل المطبخ. فتح الثلاجة الخاوية وتناول زجاجة الماء (يبدأ في تناول الماء باردًا قبل حلول موسم الحر) ملأ كوبًا وتجرعه على مهل. شرع في إعداد كوب من الشاي.

منذ سنوات أخذ يتغلغل في وجدانه شعور بأن الحياة قد فقدت طعمها ورونقها. فلا طعم للشاي والقهوة والتبغ، ولا للطعام والشراب والفاكهة، ولا رونق لحلاقة الوجه والاستحمام والجماع والنوم، لا بهجة في مداعبة الزوجة وملاعبة الطفل وممازحة صديق. لا متعة في السكر أو التنزه أو الجلوس في مقهى. لا انسجام في الاختلاط بالناس ولا سكينة في الركون إلى الوحدة. لا راحة في التحدث ولا طمأنينة في الاحتماء بالصمت والشرود. لارونق لأي شيء. أي شيء. لقد صار إنسانًا بلا متع أو لذائذ، وبلا أحلام أو رغبات، يمارس أشياءه بحكم الضرورة والعادة. ربما إثباتًا للوجود. أو، ربما، بدافع أمل واحد وحيد بقي لديه، وهو أن يهزم تبلد الأحاسيس يومًا ويسترد بعض المتع. في البداية ظن أن وراء المشكلة خللاً عضويًا ما. لكن المعاينات والفحوصات الطبية نفت

ذلك. فاعتبر الحالة اختلالاً وجدانيًا. بعض الأصدقاء صرحوا بأن لديهم نفس الحالة تقريبًا. صار الآن يحس بأن جاذبية الحياة، برمتها، نزلت إلى الصفر.

جهز كوب الشاي، قرر أن يجلس ليحتسيه في الشرفة، وينظر فيما ينبغي عليه عمله. وهو يتجه إلى الشرفة، لاحظ ورقة صغيرة مطوية فوق منضدة الردهة، تنحشر إحدى زواياها تحت إبريق الماء الزجاجي. سحبها وأخذها معه.

جلس على كرسي البلاستيك. رشف من كوب الشاي رشفة قصيرة، ثم وضعه فوق المنضدة البلاستيكية. أشعل سيجارة. امتص نفسًا عميقًا. احتبسه في رئتيه قليلاً، ثم حرره متمهلاً. فتح رسالة زوجته:

«أخيرًا قمت بما كان يجب أن أقوم به منذ زمن. الحياة معك ما عادت ممكنة. لقد فررت بابني. لا أريد له أن يطير كالعصافير. أريده أن ينمو في دفء أحضاني، ويكبر تحت رعايتي. لا أريد منك شيئًا. أنا قادرة على إعالته. أرجو أن يسوى الأمر دونما ضجيج».

أعاد قراءة الرسالة. فكر بأن زوجته كانت، عند الحاجة، دقيقة ومركزة وواضحة في كلامها. نظر إلى الشرفة المقابلة في البناية المواجهة.

❖❖❖

كان أحيانًا يجلس، مع زوجته، في الشرفة، يتناولان شايًا أو قهوة، معهما ابنهما الصغير حين لا يكون نائمًا. في الشهور الأخيرة كثيرًا ما كانا يشاهدان رب الأسرة الساكنة في الشقة المقابلة يخرج إلى الشرفة بهيئة شعثاء متوترة.. يقف قليلاً متشبثًا بالسياج، متطلعًا حوله، ثم يصيح صيحات عالية متتالية:

- ما عادت الحياة تطاق. ما عادت تطاق.

يضرب سياج الشرفة براحتيه عدة ضربات متلاحقة متسارعة.. يصفع جانبي رأسه بضع صفعات صائحًا بصوت أقل حدة مخلوط بالبكاء:

- لا تطاق. أبدًا ، لا تطاق.

في إحدى العشيات، وبينما كانا يجلسان في الشرفة حول كوبين من الشاي يحسبان حجم الديون المتراكمة عليهما دون أن يجدا الفرصة لسداد ولو جزء منها، ويحاولان توزيع المبلغ الضئيل المتبقي لديهما على الأيام القادمة قبل الموعد المتوقع للإفراج عن راتب أحدهما، ظهر رجل الشقة المقابلة في الشرفة حاملاً ابنه، الذي لا يبدو أنه تعدى السنتين، بين ذراعيه، صائحًا بأعلى صوته:

- أصبحت الحياة لا تطاق.

كان الطفل يبكي ضاربًا الهواء بيديه ورجليه، استمر الرجل يصيح:

- ماذا أفعل؟ لماذا لا يطير أطفال البني آدم مثل صغار العصافير؟ هكذا...

وطوح بالطفل الصارخ في الفراغ من ارتفاع الطابق الرابع. أطلق الطفل زعقة ضارية، كما لو كانت زعقة الحياة إذ تجد نفسها، على حين غرة، في قبضة الموت، فتزعق من شدة إحباطها وعجزها وخذلانها. انبترت الزعقة عند ارتطام الطفل بالأرض. انطلقت صرخات وشهقات من جهات مختلفة، وتداخلت في المستطيل الذي تطل عليه مجموعة البنايات. شهقت زوجته ووثبت ناهضة، فتعثرت وخرت مغشيًا عليها.

ظلت أكثر من يومين مضطربة، تبكي بوجه مسود وعينين منتفختين، متسائلة بين الحين والآخر:

- هل ما شاهدناه وقع فعلاً؟. هل هذا معقول؟

- للأسف، لقد وقع فعلاً.

- هل هذا معقول؟.

- ليس كل ما يحدث معقولاً.

عندما تماثلت إلى الهدوء، بعد أيام، وبينما كانا مستلقيين في غرفة المعيشة، تنظر هي إلى شاشة التلفزيون المكتوم الصوت، ويتصفح هو مجلة دون أن يجد القدرة على قراءة شيء منها، قال دون أن يحول عينيه عن المجلة:

- تساؤل وجيه!.

أحس بحركة التفاتها نحوه. قال:

- إنه ليس تساؤلاً عبثيًا، كما يبدو في الظاهر.

قالت بخفوت:

- ما هو؟

يبدو أنها ظنته يعلق على تساؤل وارد بالمجلة.

- ذلك الذي صرخ به الرجل الذي قذف بابنه.

صاحت:

- ماذا؟

- أعني من ناحية...

لكنها انتفضت فجأة. حملت الطفل الذي كان يغفو إلى جانبها ولجأت به إلى غرفة النوم، مغلقة عليهما الباب بالمفتاح.

من يومها لم تعد تترك الطفل معه أبدًا. إذا أرادت أن تدخل الحمام أو المطبخ أو غرفة الاستقبال تحمله معها وتغلق الباب بالمفتاح، أو تقفل عليه غرفة النوم، إذا كانت هي ستغادرها لبرهة قصيرة. لم تعد تذهب إلى العمل أو تغادر البيت مطلقًا. حاول كثيرًا أن يخرجها من حالتها، ولكنها كانت تتمسك بأنه ينوي قتل ابنها. أثناء الليل كثيرًا ما كان ينتبه على صراخها.

أعاد قراءة الرسالة:

«الحياة معك ما عادت ممكنة...»

نهض: «ما عادت ممكنة».

تطلع حوله. كان صمت فترة الظهيرة وسكونها سائدين. امتص بقايا السيجارة، ثم داس عقبها بعنف وبطء. رشف رشفة من الشاي، اتجه إلى الحمام.

عاد جلس على الكرسي. تناول رشفة شاي. استشعر الوخز الطفيف في رسغه الأيسر. فكر بأن الانتحار اكتشاف، أو اختراع، إنساني عظيم، لم تنصفه البشرية. تساءل: «ترى في أية ظروف، وكيف، انتحر أول منتحر في التاريخ». ارتشف آخر رشفة شاي متبقية. تطلع إلى السماء الربيعية الصافية. فكر أنه لم يعد هناك معنى في أن يتأمل ما حوله. شعر ببعض الارتخاء. نظر إلى غدير الدم الصغير المتجمع على أرضية الشرفة. أغمض عينيه. فكر بأن زوجته وأقاربه وأصدقاءه سيفاجأون كثيرًا. تساءل عما يمكن أن يعتقده البعض حول سبب انتحاره. شعر بمزيد من الارتخاء ورغبة في النوم، فحاول أن يتخذ في كرسيه، وضعا أكثر ملاءمة. لم يكن يتوقع أن الموت يمكن أن يكون هينًا وسلسًا، بل وأنيسًا، إلى هذا الحد.

الناس تظلم الموت كثيرًا. ها أن كل شيء ينتهي دون ضجيج، كما عبرت زوجته في رسالتها. رن جرس الشقة. قال دون أن يفتح

عينيه: «ترى من القادم...» قال: «سبقت الشفرة الرنين». ضحك في نفسه. قال: «إنه تعبير طريف ولا شك، لكن لن يصل إلى أحد». تردد الرنين عدة مرات، ثم انقطع. أخذته شبه غفوة... أخذ فضاء الساحة التي أمامه يكتظ بأطفال متصائحين يطيرون في تشكيلات متبدلة. كان ابنه من بينهم. حط ابنه على حاجز الشرفة لاثغًا: «بابا.. بابا..» واستمر يبتسم ويصدر صيحات ابتهاج مهتزًا ومتمائلاً كما لو كان يرقص ومثلما كان يفعل كثيرًا. فتح ذراعيه وحاول أن يقول: «تعال». فلم يخرج صوت نهض نحوه شارعا أحضانه، فطار ابنه محومًا في فضاء الساحة متفرغرًا بالضحك. لاحظ أن زوجته كانت تطير إلى جانب ابنه. قفز في الفراغ طائرًا خلفهما. أحس بنفسه يطير بخفة ويسر، في البداية، ثم تعاسر تنفسه وتثاقل جسده وأحس بنفسه يهوي ببطء- مندفعًا برأسه - في غور دامس.

تأويـــل:

بعد أن انتهى الكاتب من كتابة قصته وغربلتها وتدقيقها والتدقيق فيها، وتوزيع الضوء والظل، والحرارة والبرودة، والتوتر والارتخاء، والطراوة والصلابة على أجزائها، حتى استوت بالكيان الذي تبدت به أعلاه، وأيقن أن مدى قدرته الفنية ينتهي دون إمكانية إضافة مزيد من التجويد، عرضها على زوجته.

جلس يراقبها وهي منكبة على القراءة راصدًا تجهم ملامحها كلما أوغلت في القصة.

بعد أن فرغت من القراءة، ألقت بالأوراق أمامها، على منضدة الردهة.

صمتت قليلاً.

التفتت نحوه.

هجس بغضبها المكتوم الوشيك الانفجار.

- قصة جيدة!.

كانت تتكيء بأحد مرفقيها على المنضدة شابكة أصابعها على بطنها. نظرت في عينيه مباشرة:

- تتكلم عن نفسك. واضح. وعنا. سأمك من الحياة.. منضدة الردهة.. منضدة الشرفة.. خزانة المطبخ.. إهمالك.. غضبي.. ابننا.. ديوننا.. ثلاجتنا الخاوية.. الرواتب المتأخرة، إلى آخره.

صمتت مسددة نظرها إلى عينيه. ظل جالسًا في كرسيه دون أن يرد.

- لقد استوعبت الرسالة من قصتك هذه. إنك تريد مني أن أذهب وأتركك . ليكن، طالما أن هذه رغبتك.

ثم هبت ناهضة، مسقطة الكرسي الخشبي الذي كانت جالسة عليه.

استمر جالسًا مكانه يسمع جلبتها وزخات سخطها وهي تجمع أشياءها. حملت ابنها الذي سرت إليه عدوى التوتر فانخرط في نوبة بكاء وصراخ، وجرجرت الحقيبة. وهي تمر به قالت دون أن تلتفت إليه:

- انتحر إذا شئت، فلم تعد تعنيني. كانت غلطة من البداية.

ومضت.

لبث مكانه مذهولاً وهو يسمع، عبر باب الشقة المفتوح، صراخ الطفل ووقع خطواتها الثقيلة على سلم العمارة، إلى أن تلاشيا.

نهض. أوصد باب الشقة. ذهب إلى المطبخ. تناول كوبًا من الماء البارد (يبدأ في تناول الماء باردًا قبل حلول موسم الحر). أخذ يعد كوبًا من الشاي. قال: «أمعقول أنْ يؤول الأمر إلى هذه النهاية؟». رد على نفسه: «ليس كل ما يحدث معقولاً». داهمه شعور بأن جاذبية الحياة، برمتها، قد تدنت إلى الصفر...

أكواب الماء وقطع الخبز

ضغط زر الإنارة فانسدلت، في مساحة الحجرة، عتمة واهنة. استلقى على السرير واحتضن الطفل حاثًا إياه على النوم. عندما استسلم الطفل للنعاس، أبعده عن صدره وانقلب متمددًا على ظهره.

خطر على باله الإحراج الذي سيقع فيه إذا لم يتمكن من الذهاب، في وقت مناسب، للتعزية في وفاة أحد أقاربه الأبعدين، الذي توفى أمس، فجأة، وسمع بوفاته اليوم. «كان يجلس مع زوجته إلى منضدة الطعام، فنهضت الزوجة لتتفقد رضيعها في حجرة النوم، لما عادت كان منكفئًا، وقد استقر وجهه في الصحن».

فكر بأن الموت، على هذا النحو، أمر مريح للميت نفسه، لكنه صادم جدًا لذويه، وقد يكون خطرًا على بعضهم. الأحياء أحق بالاهتمام - فكر - لكن الموت بيسر أمر في غاية الأهمية. ثم إن مواجهة الملمات والرزايا أمر من مهمة الأحياء، ومن طبيعة الحياة. قد تكون في الأمر أنانية، لكنه يتمنى لو يموت بهذا الشكل.

اقشعرت أعماقه. ماذا لو حدث له ذلك الليلة. ما هو، في هذه

الحالة، مصير الطفل إذ يستيقظ آخر الليل، أو في الصباح، ويجده جامدًا متصلبًا لا حركة ولا صوت. لا يستطيع الطفل أن يقوم بفتح الباب ليخرج من الشقة باكيًا فيلفت انتباه الجيران. لا يمكنه أن يفتح الثلاجة، لو عطش، ويتناول قنينة الماء ويشرب، كما لا يقدر على فتح الغالوني، المتروك في ركن من المطبخ، ليشرب منه. إذا ما انتبه الجيران إلى بكائه، فإنهم، على الأرجح، لن يبادروا إلى كسر الباب فورًا والقيام بإنقاذه. سيقومون بإبلاغ الشرطة التي ستراعي، في مثل هذه الظروف، التصرف وفق الإجراءات القانونية المحددة. وبذلك قد يطول الخيط ويضيع الطفل. قد يمر أحد أخوة زوجته أو أخوته في وقت ملائم ويتصرف على مسؤوليته. قد يقرع القادم الجرس، ولا يسمع، لسبب ما، بكاء الطفل فيعتقد أنهما قد خرجا.

نهض الطفل. نادى: «بابا.. بابا..» فلم يتلق ردًا. كرر، وهو يربت على خد أبيه في البداية، ثم وهو يحاول تحريك رأسه: «بابا.. بابا.. أبي أميه» ثم شرع في البكاء..

واصل البكاء معيدًا النداء والطلب محاولاً هز الجسد الساكن. بعدها نزل من على السرير، وخرج من حجرة النوم. أخذ في الطواف بالشقة منتحبًا مناديًا: «ماما.. ماما.. بابا..» ظل يعود إلى أبيه بين الحين والآخر ليهزه مناديًا ومطالبًا بالماء.

بعد فترة أخذ يصيح: «بابا.. بول.. بابا.. ككه.. ككه.. بول» لينهي العملية في ثيابه..

استمر يبكي ويصيح مناديًا أمه وأباه إلى أن شقت عليه المواصلة. نضح جسمه كمية كبيرة من الماء دموعًا وعرقًا. لعابه نشف وتعسرت حركة لسانه الذي أخذ يتخشب ويلتصق بسقف فمه. دخل الحمام. عندما لاحظ المرحاض اندفع إليه فورًا محاولاً الشرب منه. لم يتمكن من أن يحفن منه براحتيه الصغيرتين الواهنتين. أخذ يحاول أن يكرع منه مباشرة، فانحشرت رأسه في البالوعة ولم يتمكن من انتزاع نفسه. بقي غائصًا في البالوعة مصدرًا أصواتًا مختنقة ورجلاه المنهكتان تتخبطان في الهواء، إلى أن نفدت أنفاسه.

حين تم اكتشاف الأمر (بعد يوم أو يومين) وجدوا الطفل منغرسًا برأسه في المرحاض، والأب متمددًا على السرير بعينين مفتوحتين على السقف.

تسرب الخبر إلى الزوجة الراقدة بالمستشفى، فجعلتها الصدمة تترك وليدها لليتم الكامل.

هب واقفًا. عمد إلى باب الشقة ففتحه. أدار عارضة القفل إلى الخارج، ثم وارب الباب: «لا يميل اللصوص إلى اقتحام البيوت المفتوحة الأبواب». ملأ عدة أكواب بالماء ووضعها في أماكن مختلفة من الشقة بحيث تكون في تمام الوضوح بالنسبة للطفل وفي متناوله. «ستكون، بسبب الحر، غير سائغة. لكن لا مفر». هم أن يضع علبة بسكويت وكوبًا من الحليب. لكنه عدل عن ذلك. لأن

البسكويت يزيد من حدة العطش وسيتخمر الحليب. وضع بدلاً من ذلك ثمرة تفاح وقطعًا من الخبز.

عاد إلى السرير. لثم خد الطفل. تملاه طويلاً عبر العتمة الشفافة، ثم أخذ يستدرج النوم.

حسن الحظ

تمنى الشرطي، عندما أدرك من يكون الرجل، لو أن أمه وأباه لم يخلقا، أو أنهما لم ينجباه.

أما وأنهما قد خلقا وأنجباه، وأن طرق الحياة، وإشاراتها، وتوجيهاتها الإجبارية قد قادته إلى الانخراط في سلك شرطة المرور والاشتغال تابعًا للمخفر الذيظ يتبعه الآن، وأن توكل إليه مهمة مراقبة وضبط حركة المرور في هذه الناحية من الشارع، وأن يقع في الورطة التي هو غارق فيها الآن، فقد تمنى لو تتفتح الأرض من تحت قدميه المرتعشتين، كما ينفتح فم المتضور جوعًا للقمة شهية، وتغيبه في جوفها المتأجج لينصهر في أعماقها ويتوزع صهيره في أبعادها.

أدرك الشرطي من هو الرجل. فقد تصادف وأن رآه مرة عندما كان في زيارة لرئيس المخفر الذي يعمل به، وكان لا بد من أن ترتسم صورته في ذهنه.

ظل الرجل واقفًا، لبرهه، يتأمل، بهدوء، إحدى عجلات سيارته

المفرغة من الهواء، ثم نظر إلى الشرطي الواقف متجمدًا. أمسك بسلسلة مفاتيح كانت بيده من مقدمة مفتاح معين ومدها إلى الشرطي:

- بسيطة، لحسن الحظ أن العجلة الاحتياطية صالحة للاستعمال.

تناول الشرطي السلسلة ممسكًا بها من مقبض المفتاح الذي كان يمسكها منه الرجل، فسقطت منه على بلاط الرصيف. لم يتكلم الرجل. استطاع الشرطي تمييز المفتاح المقصود، فانحنى والتقط السلسلة. اتجه نحو صندوق السيارة. لاحقه صوت الرجل:

- وإلا كنت جعلتك تنفخها بفمك.

فتح الشرطي صندوق السيارة. أخرج العجلة الاحتياطية ووضعها، محاذرًا، على الرصيف، ثم أخرج الرافعة ومفتاح العجلات.

أشعل الرجل سيجارة وأخذ يدخن متمشيًا جيئة وذهابًا على الرصيف.

برك الشرطي كالجمل الذي ضرب على ركبتيه وشرع في القيام بما هو مطلوب منه بيدين موهنتين، يستحثه وقع خطوات الرجل على الرصيف.

- التعليمات واضحة ومحددة. أية سيارة تجدونها متوقفة في مكان محظور فيه الوقوف تفرغون هواء إحدى عجلاتها. لابد من الصرامة في تطبيق ذلك.

كاد أن ينفجر، مقهقهًا أو باكيًا، لهذا العبث، وخيل إليه أن جميع الحاضرين يمتلئون بنفس المشاعر، وأن هناك قهقهة كبيرة قوية أو صرخة احتجاج ضخمة مدوية مكبوتة يمكن أن تنفجر وتهز جدران القاعة. أحد الحاضرين تدخل قائلاً:

- في هذه الحال ستبقى السيارات في أمكنتها زمنًا أطول، خاصة وأن هناك من تنقصهم بعض اللوازم. ثم ماذا ستستفيد الدولة. إن الغرامة النقدية أجدى.

- لسنا هنا بصدد مناقشة التعليمات، وإنما بصدد تنفيذها. ينبغي على المواطن أن يتعلم أن الدولة لا تتصيد فرصة ارتكابه مخالفة حتى تحصل منه على نقود. المواطن يعتقد أن الدولة تتغاضى عن النيل من هيبتها مقابل ما تغرمه به. إهانة الدولة لا تمسحها الغرامة. لابد من أن يفهم المواطن أن الدولة أمكر منه وأنها قادرة على إتعابه بأشكال لا يتوقعها.

عندما بدأ ينفذ التعليمات كان يشعر بأنه يقوم بعمل لا يقوم به سوى الصبية العابثين. ثم صار يجد فيه شيئًا من التسلية. وما لبث أن صار يحس، وهو يستمع إلى وشيش الهواء المكبوت ينفلت متحررًا، كما لو أنه يزفر، هو شخصيًا، ما يضطرم في أعماقه من برم وضيق. ومع تكرار ممارسة الفعل، صار يخامره اعتقاد بأنه لا ضير من التنكيل بالمواطن بين الحين والآخر. فليعتبر ذلك نوعًا من

المزاح تقـــــوم به الدولة مع المواطن. من حق الدولة أن تمزح بطريقتها. لم لا؟. وبالطبع لابد أن يكون مزاح الدولة مزاحًا فظًا. في أحيان كثيرة يحس بهذه المشاعر مختلطة أو تتوالى على وجدانه بسرعة وهو يفرغ هواء عجلة.

انتهى من تركيب العجلة. حمل العجلة الفارغة (المفرغة) ووضعها في مكانها من صندوق السيارة. عاد فحمل الرافعة والمفتاح ووضعهما حيث ينبغي لهما أن يوضعها. أقفل باب الصندوق برفق شديد. توجه إلى الرجل الذي ما زال يتمشى، وهو يدخن، على الرصيف، ودون أن يرفع رأسه مد له، بيد خانعة، سلسلة المفاتيح هامسًا بصوت مغصوص:

- تفضل، سيدي.

سحب الرجل آخر نفس من سيجارته. ألقى عقبها على الرصيف وداس عليه بقدمه. تناول سلسلة المفاتيح.

- ينبغي أن تكون لك القدرة على التمييز.

رد الشرطي وهو يؤدي التحية بارتباك:

- حاضر، سيدي.

ركب الرجل سيارته، ومضى.

ظل الشرطي محتفظًا بوضع التحية، حتى توارت السيارة، مقاومًا، بما أوتي من عناد، أن ينفجر باكيًا بعبرة حارقة.

وقف مذهولاً لبرهة، ثم أخذ يستعيد شيئًا من توازنه. شعر بارتياح عميق عندما تأكد من أن أعصاب مثانته لم تتراخ تحت ضغط الموقف. قال لنفسه: «لم لا؟ . من حق الدولة أن تحفر الحفر بطريقتها».

في الأيام التالية صار الشرطي يقف في مكانه من الشارع شبه ثابت، وصارت السيارات تقف بحذاء الرصيف بالقرب منه وبشكل يضايق حركة المرور دون أن يكترث به أحد، كالفزاعة التي ألفتها الطيور.

صورة سالبة

إضاءة القاعة لا تتجاوز الحد الذي يمكن الجمهور من تبين الكراسي. الممثلون (وهم ذكور وإناث ومن أعمار متمايزة) يجلسون في القاعة متناثرين (لا يزيد عدد الجالسين متجاورين عن ثلاثة). الستارة مرفوعة والركح في إظلام تام. هناك موسيقا (من نوع المارشات) منخفضة جدًا، وبين الحين والآخر، ترتفع، وبشكل مزعج أحيانًا، لمدة ثوان.

انبثقت الدقات التقليدية رصينة، وقورة وآمرة فأطفئت، فورًا، الأنوار وران الإظلام الكامل لمدة دقيقة، ارتفعت، أثناء ذلك، الموسيقا بمستوى معقول ونهض الممثلون صائحين:

- نعم نعم. نعم نعم . نعم.

أضيء الركح تدريجيًا، فانكشف خلوه من أي ديكور واكتساؤه بالسواد من كافة جوانبه، فورًا، أخذ الممثلون في مغادرة القاعة والصعود إلى الخشبة. لم يردوا تحية الجمهور وعمدوا حالاً، إلى التحرك على الخشبة معطين انطباعًا بأنهم يسيرون في شوارع. كانوا يتحركون فرادى وأصحابًا (ليس أكثر من ثلاثة). إيقاع

حركتهم كان متباينًا وكانوا يعطون، في مختلف حالاتهم وأوضاعهم، انطباعًا قويًا بالتجهم والتوتر. لباسهم كان عاديًا وألوانه من أكثر الألوان استعمالاً (دون أن يكون موحدًا) وكانت الإضاءة موزعة على نحو يحول دون ظهور ظلالهم. أحيانًا يقف اثنان أو ثلاثة (كما يقف المعارف والأصدقاء الذاهبون في عجلة من أمرهم عندما يلتقون عرضًا) ليتبادلوا التحايا والحديث (الذي لم يكن مسموعًا). في بعض الحالات يقترب أحد من المتحدثين فيبترون لقاءهم ويتفرقون مسرعين. تعلو الموسيقا، فيتنبه الجميع. وعندما تخفت يهتفون:

- نعم نعم. نعم نعم. نعم.

لم يكن علو الموسيقا يستمر طويلاً. لكنه يتكرر على نوبات قصيرة متتالية مفصولة، في كل مرة، بهتاف: نعم نعم. نعم نعم. نعم. وكانت مدة الهتاف تستغرق أحيانًا، مدة أطول من مدة نوبة علو الموسيقا.

فور عودة الموسيقا إلى وضعها العادي كنا نسمع، هنا وهناك، نعم–(ات) أقل حماسًا وارتفاعًا، ونشاهد البعض يتبادلون الهمس بسرعة واختلاس واضحين.

عقب كل نوبة من هذه النوبات، كانت تمكن ملاحظة زحف الجدار الخلفي للركح إلى الأمام قليلاً.

عندما بلغ الجدار الخلفي للركح وسط الخشبة، انقطع الهتاف

الذي اعتدناه يتبع نوبات علو الموسيقا وصارت تند عن البعض، متبادلة فيما بينهم، كلمة: لا. لا. وتزداد حالات الاقتراب من المتحدثين. بعد كل نوبة علو في صوت الموسيقا غير متبوعة بهتاف النعم(ـات) تخفت الإضاءة بما يوحي بالليل لنرى أفرادًا يقودهم (أو يدفعهم) أفراد آخرون (لا يوجد تمييز في مظهر الفريقين) بعنف، وتتناهى، من خارج الركح، على نحو خافت، صرخات.

يستمر، في هذه الأثناء، زحف الجدار. ومن ناحية أخرى، يأخذ بعد كل نوبة من هذه النوبات الأخيرة، عدد الذين يتبادلون كلمة لا ويجهرون بها يزداد (ولكن دون أن تتحول إلى هتاف) والحذر ينقص وكذلك حالات الاقتراب من المتحدثين، وتأخذ حالات الاقتياد تتناقص حتى تتوقف، ويلحظ الظهور التدريجي لظلال الممثلين.

عندما غيب الجدار الخلفي الزاحف ما يمثل ثلاثة أرباع الركح وراءه، صرنا نشاهد بعض الممثلين يأخذون في الضحك عقب كل نوبة علو للموسيقا. ومع ازدياد تقلص المساحة أخذ عدد الضاحكين يتزايد وكذلك قوة الضحك الذي يبدو - تمامًا كالصرخات المتاهية من خارج الركح - لا إراديًا.

لما شارفت المساحة بين الجدار الزاحف وموقع الستارة الأمامية للركح على الانعدام، شرع الممثلون (الضاحكون منهم فقط، وهم أغلبية) ينزلون إلى القاعة (مستغرقين في الضحك). بعضهم

جلس على أقرب كرسي شاغر صادفه وبعضهم تخير أماكن قصية في حين ظل البعض الآخر يتمشى بين الصفوف.

تواصل الضحك إلى أن علت الموسيقا، عندها وقفوا صائحين:

- لا لا . لا لا . لا . لا .

أطفئت إضاءة الركح وأنزلت الستارة وصمتت الموسيقا.

سرير اللغة، أسرة الواقع

الجذر اللغوي الذي تكون منه مفردة «سرير» وهو «سرر» تشتق منه أيضًا مفردات «سر» (جمعها أسرار، ومن معانيها: الجماع وذكر الرجل) و«مسرة» (جمعها مسرات) و«سرور» (لا جمع لها).

ذلك يتضمن فرضية أن السرير مجال نشاط السر ومسرح السر وأنه مرتبط بالمسرات المولدة للسرور.

وهو قد تكون مرت في حياته أسرار ما ذات علاقة بمسرات (كفضالة الزيت في الخابية) منتجة لسرور ما (كالفاكهة المعطوبة) تتصل بالسرير، أو بما يفترض أن يجري فيه.

ذلك أن علاقته بالسرير علاقة متفردة، عن جدارة.

ففي طفولته وصباه وردح من شبابه، لم يكن ينام على سرير. وكان يحلم بأسرار ومسرات تجري كلها فوق أسرة وثيرة ناعمة غارقة في ضوء خفر وسنان في حجرات مفعمة بعطر رهيف يضع المرء على الصراط الفاصل بين الانتعاش والخدر حتى ليكاد يستشعر رسيس اللذة ولو لم يماسسه جسد، مع شريكات يانعات الثمار عذبات الأسارير سخيات السرائر.

أول علاقة له مع السرير دامت ما يزيد عن شهر وقعت عندما كان في حوالي الثامنة عشرة من عمره حين أخذت الدولة لأسباب غير معلنة، وغير مفهومة بالنسبة له (آنذاك) تلتقط أعدادًا من الشباب وتضعهم في ثكنة عسكرية. عندها نام على سرير لم يكن راغبًا في أن تدوم علاقته به.

بعد ذلك بسنة أو اثنتين، اتصلت حياته بالسرير في القسم الداخلي بالجامعة. لم يكن يعتني بترتيب سريره، فكان يبدو (كما وصفه في قصيدة له) «كخرابة في عمق الصحراء»، وكان، في مواجهة تعريض أصدقائه، يعلل إهماله هذا بالقول بأن «السرير الفردي نعش وثير، والمرء لا يرتب نعشه، حتى وإن كان وثيرًا». وكان يقول بأن «السرير الفردي زنزانة تحبس الجسد وتشرد الروح».

من هذا «النعش الوثير»، انتقل إلى نعش أقل وثارة.

من زنزانة السرير، انتقل إلى سرسر الزنزانة.

في الأيام الأولى كانوا ينامون في توقيف الشرطة على حشية لا بأس بحالتها وكفاءتها في الإيفاء بالمطلوب منها.

وعندما ألقوا في السجن لم يمنحوا سوى بطانيتين لكل فرد. كان الوقت في عز الشتاء (شهر 1) وكان السجن يجثم وسط خلاء أجرد. فسواء افترش بطانية وتغطى بأخرى، أو افترشهما معًا، أو تغطى بهما الاثنتين، فسيظل ضحية برد شديد يحول بينه وبين

النوم، حتى تأتي شمس الضحى- إن أتت- لتبعث في الزنزانة دفئًا يتضافر مع دفء البطانيتين في إدخاله في حالة يشملها مفهوم النوم.

في الليلة العاشرة منحوهم فراشًا إسفنجيًا (وفي اللسان: الفراش الزوج، والفراش المرأة، والفراش ما ينامان عليه). فنام نومًا مريحًا وعميقًا.

عند الفجر، أيقظوهم لنقلهم إلى سجن آخر.

(بعد ذلك سيكتب واحد منهم - خطر له أن يمارس كتابة القصة - قصة عن هذه الرحلة تبدأ بهذه العبارة: «عند الفجر رحلوا، كان النهار داكنًا»).

لما وصلوا السجن الآخر، في نهاية رحلة دامت حوالي ثماني عشرة ساعة قضوها بكاملها تقريبًا في «صناديق» ضيقة، وأدخل كل واحد منهم إلى غرفة، فرح بوجود السرير المرتب المغطى بملاءة بيضاء نظيفة وعليه بطانية ومخدة موضوع عليها منشف وإلى جانبه كوميدينو متقادم فوقه صحن وكوب قديمان، كلاهما من البلاستيك، وملعقة. تبول وشرب من الصنبور مباشرة، ثم نزع حذاءه وارتمى على السرير بكامل ملابسه ليستغرق في نوم عميق حتى الصباح.

فيما بعد، علم أن القسم الذي وضعوا فيه كان مخصصًا للنساء وأنهن نقلن منه صباح وصولهم.

النساء، إذن، قمن بترتيب الأسرة قبل مغادرتهن.

أخذ يتصور المرأة التي هيأت (له) السرير. شابة (ينبغي أن تكون) ذات جسد زاخر غضر وروح تواقة. لابد أنها فرحت عندما علمت أنها ستهيء السرير (ربما هو ذات السرير الذي كانت تنام عليه) لرجل. لعلها بادرت إلى الاستحمام وتعطرت بما هو متاح ولبست ملابس نظيفة قبل أن تشرع في تهيئة السرير. لابد أنها كانت تتساءل، وهي تقوم بهذه المهمة، أي نوع من الرجال سينام عليه. تتصور شابًا وسيمًا في فورة شبابه متخيلة أنها ستشاركه إياه ولن يضيق بهما.

فتش عن أثر يمكن أن تكون قد تركته في السرير: شعرة مثلاً. تشمم المخدة والملاءة عساه يلتقط بقايا رائحتها. نشر جسده على كامل السرير عله يرصد شيئًا من أنفاسها ودفئها وطاقة جسدها التي ظل السرير يتشربها مدة طويلة ربما دامت سنوات. من المتوقع أن يمكث هنا طويلاً هو الآخر وسيتشرب السرير كثيرًا من حرارة وطاقة جسده فيمتزج ما بثه الجسدان. فكر في أن يمنحها اسمًا نسائيًا من الأسماء التي تعجبه. لكن ما نفع الاسم. يكفي أن يسميها بضمير الغائب: هي. أو فليمنحها اسمًا حركيًا. سريريًا بالأحرى (يتضمن سرًا ومسرة). ليكن اسمها: التي هيأت السرير. إنه اسم منسوب إلى فعل من أفعالها. فعل دخل دورة العالم السري لرجل مضفيًا على ظروفه القاحلة رونقًا ما، يتصورها تستلقي على

سـريرهـا في قسم النسـاء عـازلة نفسـهـا عمـا يحيط بهـا تفكر في الرجل النائم الآن على سريرها الذي هيئته لاستقباله. تضطجع على أحـد جـانبـيـهـا تحـتـضن مـخـدتها وهـي تتـمطى، بفـعل طاقـة شهوتها، بأقصى ما يمكن لجسدها مغمضة عينيها عاضة على شفتها السفلى ضاغطة ساقيها على بعضهما متصورة أنها تشاركه ذلك (هذا) السرير... فتستـجيب للخيـال وتتفتح براعم الجسد، ويشتد نزيف جراح الروح. (لكأن الروح، وقد أوهمت الجسد وألهته، تتفطر مما اعتراها من ندم).

أصبح، مع الوقت، يحس أن بينهمـا ما يحـوز وجـودًا خـارج دنيـا التخيلات والتهيوءات. شيئًا يشكل أساسًا لعلاقة ممكنة (غير محتملة). صحيح أنهما لا يعرفان بعضهما. لكنهما لا يجهلان بعضهما تمامًا. فهي تعرف الزنزانة التي تحبس جسده والسرير الذي يحتمله ويمكنها (في ظروف أخرى) أن تأتي إلى إدارة القسم وتقول: أريد مقابلة الرجل الموجود الآن في الزنزانة الواقعة في نهاية الممر الذي على اليسار. فيخرجونه إليها ويتقابلان. وبإمكانه، هو الآخر، أن يذهب إلى إدارة قسم النساء ويقول: أريد مقابلة المرأة التي هيأت السرير الموجود في الزنزانة الواقعة في نهاية الممر الذي على اليسار في القسم الذي أصبح الآن قسم المساجين السياسيين. فيخرجونها إليه ويتقابلان.

بعد ذلك نقلوا إلى سجن آخر كانت أسرة زنازينه كل سريرين

فوق بعضهما وكان نصيبه السرير العلوي. كان سطح الأسرة لوحًا من المعدن. فظل، لوقت طويل، يستلقي على ظهره في نوم متقطع، خشية أن يسقط أثناء تقلبه وهو نائم. بعدها أصبح يشعر أن بإمكانه أن ينام على سطح مسطرة دون أن يخشى السقوط.

على الحائط، بجانب سريره، كتب «السرير زورق لا يبحر إلا في الأحلام».

ولكنه، حتى في الأحلام، لم يكن ليبحر.

إذ لم تكن هناك أحلام.

لم تكن هناك، غالبًا، غير كوابيس تجعله يصرخ موقظًا النائمين معه.

في أفضل الأحوال كانت هناك أحلام كطعام السجن الذي ليس من النادر أن يأتي مالحًا أو غير مكتمل النضج أو مختلطًا (مخلوطًا؟) بالتراب أو بأكثر من صفة من هذه الصفات أو بها جميعًا.

كان كثيرًا ما يرى في (أحلامه) أنه قد خرج من السجن وأنه يعاد إليه. وصار الآن كثيرًا ما يرى في أحلامه أنه أعيد إلى السجن (سجن أقسى وأشد همجية من الأول) ولا يخرج منه. ودائمًا يتذكر قول ابن سينا عندما أدخل السجن:

دخولي باليقين، كما تراه.

وكل الشك في أمر الخروج.

لكأن عقله الباطن طوح بالرغبات المكبوتة بعيدًا، قاصرًا وظيفته على كونه محتشدًا للمخاوف المنفلتة.

بعد زواجه، صادف أن سرير الزوجية من النوع الذي يتكون سطحه من ألواح مستعرضة سائبة. ولعدم دقة النجارين (المحليين) في ضبط المقاس وقاعدة الارتكاز، كانت الألواح كثيرة السقوط بشكل يقض المضجع.

ومن ألاعيب اللغة ومفارقات الواقع أن ما يمكن أن يكون مقلوب كلمة «سرير» وهي «رسيس»، تعني، عندما تجيء صفة، «ثابتًا».

وإذن، فحتى السرير الذي كانت علاقته به، إلى درجة ما، باختياره.. لم يكن رسيسًا.

انتهت يوم 20001/4/24

رحلة صيد

لم تودعهما وهما يتهيآن للذهاب إلى الصيد صباحًا. لم تسألهما أن يحرصا على نفسيهما ويأخذا حذرهما، بل إنها تحاشت حتى أن تلتقي عيناها بعيني أي منهما. ذلك أن إحساسًا قويًا يؤكد لها أن موعد الحسم قد آن. منذ أسابيع وهي تتوقع حدوث هذه الواقعة وترجو ألا تحدث أمام عينيها.

في البداية لم تشعر بالأمر (ليس، فقط، لم تشعر. بل إنه ما كان ليخطر لها على بال) فالرجلان صديقان (كانا)، تضرب صداقتهما بجذورها في سنوات طفولتهما. وبعد أن تزوجت أحدهما كان عليها أن تتقبل مزاحمة هذه الصداقة لها وتتفهمها وتتصالح معها. وعندما نجا ثلاثتهم من بين جميع ركاب الطائرة التي تحطمت على هذه الجزيرة المنعزلة الخالية، تعزت بوجودهما معًا.

ازدادت العلاقة بين الرجلين قوة وتلاحمًا، أول الأمر، لكنها سرعان ماتنبهت، بعد أن استقروا وتكيفوا مع الحياة الجديدة، إلى أن طبيعة العلاقة بين الرجلين قد أخذت تتبدل.

– ما عدتما تجلسان طويلاً وتتحدثان مثلما كانت العادة.

- لم يعد لدينا ما نتحدث فيه.

- أظن أنه من الصعب عليه أن يبقى وحيدًا هكذا.

نظر إليها زوجها نظرة قصيرة ثم قذف بكرة التراب المبتل التي كان يسويها بين يديه إلى الجدول فغرقت، بعد أن جعلت الماء يتطاير، وطفا التراب على السطح معكرًا الماء. ثم نهض.. نفض التراب عن يديه، وظل واجمًا. عندها أدركت أين وضعت نفسها واكتشفت الخطر الذي كان يستفحل في الأغوار مادًا الخطى نحو السطح. ذلك جعلها تبالغ في التزام الحذر، فتتفادى الإشارة إلى الآخر قدر الإمكان، حاصرة التعامل معه في أضيق الحدود. ويبدو أنه أدرك، هو الآخر، ما أخذ يمد الخطى نحو السطح فالتزم جانب العزلة أكثر وصار يتجنب مجرد الاقتراب منها. أصبحت كثيرًا ما تفكر في وضعه وتتساءل إلى متى سيظل قادرًا على تحمل ذلك. تتصوره منطويًا على نفسه في الليل يرطب وحشته (أو يذكي أوارها) باستحضار صورتها. ليس تفاصيل جسدها، ما انكشف منها وما استتر، فحسب، بل ونظراتها وابتساماتها، التفاتاتها وانحناءاتها، نبرات صوتها وإيماءات يديها وهي تتكلم، مشيتها ووقفتها وجلوسها، رنة ضحكتها وانكتام وجومها، سرورها وحزنها، انتباهها وشرودها، انفتاحها وانطوائها، صمتها وتنفسها. لابد أنه يتصور الأوضاع التي تتخذها في نومها وأثناء الجماع وتفاعلها مع سريان تيارات اللذة في كيانها، فأخذت تحرص على كظم آهاتها

وصرخاتها خشية أن يكون يطوف حول مكانهما ليلاً مستكشفًا ما يحدث. لابد أنه يتساءل إلى أي مدى وكيف تفكر فيه وما موقفها مما يمكن أن يحدث.. مما سوف يحدث.. مما سيحدث. يومًا إثر يوم أخذ يترسخ في أعماقها أن الأمر لا يمكن أن يدوم طويلاً على هذه الحال. لو أنهم كانوا رجلاً وامرأتين لانحلت الأزمة بقدر من السهولة. كان الرجل بادر إلى ضبط الأمر ورضيت المرأتان بالاشتراك فيه. وضعهم حالة استثنائية ينبغي التعامل معها بشكل مختلف. لكنها لا تريد أن تتدخل. تخشى أن تتدخل. الحالة الجارية الآن مرض فتاك ملامسته تهيجه. إنها لا تفكر في أن تخذل زوجها، لكنها لن تشجعه على (أو تحاول ثنيه عن) المضي فيما لابد أنه عازم على المضي فيه. ولن تتواطأ مع الآخر أو تحاول ثنيه. هما أيضًا لم يسعيا إلى استقطابها. كأن لا أحد منهما يثق بها أو يعول عليها. أو أن كلا منهما يرى في مجرد حيادها مكسبًا. أو أنهم، ثلاثتهم، قد عادوا إلى المرحلة الحيوانية حيث تحسم الذكور صراعها، فيما تظل الإناث تنتظر المنتصر. الفارق في حالتهم أن الصراع لا ينتهي بهزيمة. إنه ينتهي بتصفية. لا مجال للمصالحة، ما دامت هي موضوع الصراع. في النهاية سيبقى لها أحدهما. على الأرجح. ماذا سيكون مصيرها لو هلك الاثنان.

توارت خلف شجرة وظلت تنظر إليهما وهما يبتعدان حتى اختفيا. ثم أخذت تتخيل كيف ستتطور الأمور:

يسير الرجلان متحاذيين، وكما يحاذر الصياد المتسلل إثارة الطريدة، يتجنب كل منهما إثارة شكوك الآخر التي يعلم كلاهما، تمام العلم، أنها موجودة ومتنبهة. فجأة يشعر أحدهما بملل لا يطاق من الاستمرار في اللعبة المفضوحة لكيليهما فيقرر إيقاف هذا العبث. رأت أحدهما يضرب الآخر، بكامل حرصه على الاحتفاظ بها (أو بكامل رغبته في افتكاكها) على مؤخر الجمجمة، فيتهاوى الآخر، بكامل رغبته في افتكاكها (أو بكامل حرصه على الاحتفاظ بها) مفلتًا آهة مبتورة. لم تكن تحاول أن تتخيل وجهيهما. كانت تتخيل ظهريهما فقط. مؤجلة رؤية الوجه إلى حين عودة أحدهما.

طرابلس (7/17) - (9/22) 2000

...تكيفـا...

كـانت الدراجـة عـاطلة من أي شـكل من أشكال الزينة وأي نوع من الكمـاليـات، ورغم أنهـا كـانت من مـعدن مـتين، إلا أن طلاءهـا قـد زال من مـعظم مـسـاحـاتهـا وانـتـشـر الصـدأ والتـآكل في عـدة أمـاكن منها، والقليل الذي واتته فرصة للبقاء حال لونه وانطفأ بريقه حتى أنـه صـــار يصـــعـب، للوهـلة الأولى، تبـين وجـــوده. الوســـادتـان البلاسـتيكيتـان اللتان كـانتا تغلفان مـقبضي المقود زالتا همـا الأخريان، وكذلك مـقبضـا الـكابحين والرفـرف الأمـامي. ومـا يثير الاسـتغراب حقًا هو أن الـرفرف الخلفي قد تمكن من البقاء متشبثًا بموضعه.

غـير أن الطفل بدا راضـيًا بحيـازته لهـا. بل إنه بدا سعيـدًا وهـو يلهـو بهـا في الشـارع القـديم الضـيق المرصـوف بالحـجـارة وغـيـر المزدحم. كان يرتدي لباسًا صيفيًا حالة صبغته مثل حالة ما تبقى من طلاء دراجته وسروالاً قصيرًا حالة صبغته أفضل حظًا.

كان يجـري بدراجتـه ذاهبًا آيبًا في مـسـافـة قـصيـرة. لم يكن يركب الـدراجـة، بل كـان يجـرهـا إلى جـانبـه وهـو يـركض، وذلك لأن المداسين لم يكونا موجودين وكذلك الكرسي.

لم يكن يجرها بسرعة، وكان، أثناء جريه، ينحني انحناءًا شديدًا تكيفًا مع ارتفاع الدراجة البالغ الانخفاض، بسبب افتقادها عجلتيها.

أثناء ذلك كان الطفل يغني ويخاطب نفسه ويتوجه بتحياته ومشاكساته إلى المارة القليلي العدد بسبب أن هذه الفترة من النهار ليست فترة نشاط وأيضًا لأن المنطقة أصبحت شبه مهجورة.

يدخل المشهد صبي أكبر من الطفل بقليل. كانت مع الصبي دراجة، وكان يركبها. طلاؤها ما زال يحتفظ ببريقه وهي بكامل أجزائها. تتدلى من ذراعي مقودها خيوط بلاستيكية ملونة وتقف في كل ذراع مرآة، كما أنها بها جرس ومنبه ينبه بالبطارية. أما الصبي فقد كان بادي الأناقة.

صاح الطفل محاولاً الركض بدراجته إلى جانب الدراجة الأخرى التي تسير بخيلاء وتمهل:

- دراجة!. دراجة!.

ثم توقف عن الركض وقال ضاحكًا:

- تلك دراجة، وهذه دراجة!.

أخذ ضحكه يقوى وهو يردد:

- تلك دراجة، وهذه دراجة!.

توقف عن الضحك.

ثم عاد إلى اللعب (بدراجته) بابتهاج...

مرير...

غـــوث

أحب أن أنوه، أنا عمر أبو القاسم الككلي، القصاص والمترجم المعروف (لبعضكم) إلى أنني قد تلقيت، عدة مرات، معونات مالية من إحدى عشرة بلادًا أجنبية، هي: روسيا الاتحادية وروسيا البيضاء والمجر وبريطانيا وأيرلندا وألمانيا ومالطا وكذلك طاجيكستان وأذربيجان وأبخازيا وأيضًا أمريكا.

وأنا إذ أقول «بلادا» ولا أقول «دولة» فما ذلك إلا لأنني أدرك المضامين القانونية لكلتا اللفظتين. وبناءً على هذا الإدراك توخيت منتهى الحذر في تبني ما تبنيته منهما. ذلك لأنني لم أتلق هذه المعونات من حكومات أو منظمات حكومية أو من أفراد ذوي مناصب رسمية أو مؤسسات صناعية أو تجارية أو مالية تحمل جنسية دولة ما، أو حتى من مؤسسة أو منظمة أو جمعية من مؤسسات ومنظمات وجمعيات المجتمع المدني في دولة ما. بل تلقيتها من أفراد ينتمون إلى هذه الأصقاع.

والجدير بالذكر أنه - باستثناء اثنين منهم فقط - لا تربطني أية صلة أو علاقة من أي نوع بهؤلاء الأفراد، وأنهم، من جانبهم، لم يسمعوا بي حتى مجرد السمع.

أكثر من ذلك، فإن بعضًا منهم متوفى منذ زمن (أحدهم، على سبيل المثال، متوفى قبل أن أولد أنا بحوالي ربع قرن).

الأجدر بالذكر أن القسط الأوفر من هذه المعونات المالية قد جاء في فترة كانت الحاجة إليه أمس ما تكون، وهي الفترة التي استدامت أكثر من سنة وعجزت فيها جهة العمل التي أتبعها عن الإيفاء بسداد رواتب موظفيها والعاملين لديها. فأنقذتني هذه المعونات من كرب الاستدانة من أصدقائي وأقاربي وأنقذتهم، هم أيضًا، (وكلهم من ذوي الدخل المحدود) من الحرج الذي كان سيسببه لهم تجاوزي عتبة الحد المقبول في الاستدانة منهم وحالت، بذلك، دون أن يتعكر صفو علاقتي بهم.

لذا، أرى واجبًا عليّ - إزاء هذا الدين الذي يطوق رقبتي - أن أوجه، باسمي شخصيًا وبتفويض من زوجتي ونيابة عن أطفالي، امتناني البالغ وعرفاني الفياض وشكري الذي لا حدود له، للأخوات والإخوة الآتية أسماؤهم:

1 - فياتشسلاف شستاكوف.

2 - يوري بورف.

3 - أولغا أرغانوفا.

4 - ليونيد ستولوفتش.

5 - تاتيانا لايوبيموفا.

6 - إيفان بونن.

7 - ميخائيل بريشفن.

وجميعهم من روسيا الاتحادية (الاتحاد السوفياتي).

8 - ا شتفان أوركيني.

9 - سلفستر أوردوف.

10- أندريه إيلاش.

11- إيفا آنتشل.

من المجر.

12- هـ. هـ. مونرو (ساكي).

13- بنيامن زيفانايا.

14- في . إس. نايبول.

15- كيت كلأوي.

من بريطانيا.

16- بولطا أورطيكوف.

17- صوربون.

من طاحكستان (الاتحاد السوفيتي).

18- بردجت كرونوير.

19- كريستوف هاين.

ألمانيا.

20- ميخائيل لاكرباي.

أبخازيا (الاتحاد السوفياتي).

21- جليل محمد خولي زادة.

أذربيجان (الاتحاد السوفياتي)

22- أولفر فردجييري.

مالطا.

23- بادرايك أوكونابر.

أيرلندا.

24- ليونيد كولودجني.

روسيا البيضاء (الاتحاد السوفياتي).

25- جمس ثاربر.

أمريكا.

ولقد جاءت هذه المعونات عبر الآلية التالية:

حيث إن المشكورين أعلاه هم كتّاب، قصاصون في معظمهم، وبما أنني أقرأ بالإنجليزية، فقد سنحت لي فرصة أن أطلع على بعض كتاباتهم، وأحببت أن يشاركني آخرون في التمتع ببعض ما

أعجبني منها. لذا قمت بترجمة عدد من هذه الكتابات إلى العربية ونشرها في صحف ومجلات تقوم بدفع مكافآت مالية نظير ما تنشره. وتصادف أن معظم حالات النشر تمت إدبان فترة الإضناك المشار إليه.

وما لا ينبغي إغفاله هو أن لغة العدد الأكبر من هؤلاء الكتاب ليست الإنجليزية، وإنما تمت ترجمة بعض أعمالهم إليها.

لذا أحب، كذلك، أن أجزي الشكر الجزيل إلى هؤلاء المترجمين - الذين آثرت، ليس دون أسى، ألا أثقل على القارئ بذكر أسمائهم - لدورهم الحاسم في إيصال قدر من هذه المعونات إليّ.

لقد منحني هؤلاء الكتاب، وسواهم، مباشرة أو بفضل مترجمين، لحظات من اللذة الفنية والجمالية والاستنارة المعرفية، بذلك فهم يذكرونني بأولئك الناس الذين يقومون بغرس شجرة أو بحفر بئر على طريق قفر. وبأولئك المستكشفين والمغامرين في غابات قارة أمريكا الشمالية الذين كانوا يتركون، كما قرأت مرة، مقادير من القديد والمأكولات المحفوظة والعسل في نقاط معينة من مسالك الغابات. وبأهالي إحدى القرى في روسيا القيصرية، الواقعة على طريق يجتازه، أحيانًا، فارون من سجون سيبيريا، الذين كانوا يتركون، كما شاهدت في أحد الأفلام، في مواقع واضحة أمام أكواخهم ليلاً، أكواز ماء وأرغفة.

صحيح أنني لم أكن عالة أو طفيليًا على هؤلاء الكتّاب. فلقد أسديت إليهم، أنا أيضًا، خدمة لا يستهان بها. ذلك أنني نقلت أشجارهم الوارفة وأبارهم الثرة وعسلهم وأكوازهم المترعة وأغذيتهم السائغة إلى لغة ربما لم تكن لتتقل إليها لولاي، وعرفت بهم لدي بشر ربما لم يتصوروا يومًا أنهم سيتعرفون إليهم. لكن فضلهم عليّ ما زال أسبغ وما أدين لهم به ما زال أثقل.

وأنا، بدوري، عندما أكتب، وحتى عندما أترجم، تنثال في وجداني رغبة جياشة بالغة الجموح، وذات دفء مثير، في أن يمثل بعض ما أكتبه - على الأقل - أو أترجمه، ظلا كثيفًا في ساعة قائظة، طعامًا يسد رمق تائه في غابة، خبزًا وماءًا عذبًا لطيفًا يمكن من مواصلة الطريق.

أبــي

الجذع القوي الذي انبثقت منه أغصان الأسرة وحملها غصنًا فغصنًا، من ماء جبينه استمدت اخضرارها وازدهت بالدفء الصادر من ضرام روحه.

سمعته ذات ضحى بينما كان يسير خلف المحراث حاثًا، بين الفينة والأخرى، الجمل على السير في خط مستقيم، يغني (وأظنها المرة الوحيدة التي سمعته فيها يغني) بصوت غير جميل، ولكن بنبرة تفيض استعطافًا ورجاء:

يا لطيف ويا لطيف

الطف بعبدك الضعيف

لكنه لم يلطف، هو شخصيًا، بالجمل المهزول الذي تساقط وبره من على مساحات كبيرة في جانبيه عندما توقف أثناء الحراثة و كف عن جر المحراث. ظل يلهب، بغضب بركاني، جنبيه وكفله بلسعات غصن زيتون طري وهو يرغي حتى تهاوى وأخذ يمد عنقه مصدرًا حنينًا حارًا متلفتًا نحو أبي في نظرة كسيرة، كما لو كان يؤكد له معتذرًا بأنه إنما توقف عجزًا، لا عنادًا.

لا أتذكر أنه قبلني أو احتضنني أو داعبني أو مزح معي مرة بعد أن تجاوزت الخامسة أو السادسة من عمري.

عندما كانا، هو وأخي الأكبر، يقومان بالحراثة قريبًا من مكان السكن كنت أذهب إليهما عند اقتراب موعد عودتهما فأطلب منه أن أمسك بالمحراث وهو يسير إلى جانبي أو أساعد أحدهما في فك عدة الحراثة عن الجمل استعدادًا للعودة (كانت معونة تسبب تعويقًا أحيانًا) فكان بعض الأحيان يسألني في همس (لم أتبين دواعيه آنذاك):

امك شِن أدِّير؟

تستغل أمي أحيانًا خلو البيت في العشية إلا مني ومن أختي الصغيرة فتلتفت إلى جسدها وتقوم بالاستحمام (لا صنابير ولا تجهيزات خاصة).

تغسل في لحمها.

فيسارع هاشا إياي ويصفعني على وجهي متلفتًا نحو أخي محاولاً إخفاء ابتسامة لاإرادية. فيملأني في كل مرة استغراب حول لماذا أضرب رغم أني أقول الحق.

كان عندما يصفعني على وجهي بكفه العريضة القوية يسقطني أرضًا، وكنت سريعًا ما أغالب نفسي وأنهض فيعاجلني بصفعة أخرى تسقطني من جديد، فأعاود النهوض ويعاود الصفع، إلى أن يكف هو عن الضرب.

الآن أكتشف أن جزءًا كبيرًا من مشكلتي معه كان يكمن في محاولتي النهوض. مؤكد أنني لو مكثت ملقى على الأرض بعد سقوطي إثر الصفعة الأولى لكان تركني.

هاجس النهوض السريع وعدم البقاء ملقى على الأرض هو الذي كان يحركني عندما تلقيت تلك اللكمة يوم نقلونا من سجن الشرطة إلى السجن العسكري.

فتحوا علينا سيارة الصناديق المطلية نوافذها بالأسود وأخذوا ينزلوننا واحدًا واحدًا صائحين علينا بضرورة الركض.

هَرْوِلْ!.

عندما جاء دوري كان عسكري أمامي منشغلاً عني بضرب أحد الرفاق وكان عسكري آخر يركض نحوي من بعيد فانبجست في ذهني خطة إنقاذ مؤداها أن أركض، حاملاً أمتعتي القليلة، بأقصى جهدي، كي أتجاوز العسكري المنهمك بالضرب قبل أن ينتبه إليَّ وأن أفر من العسكري الراكض (كمن يمرق بين لسان لهب توجهه الريح إلى الجهة الأخرى ولسان آخر تدفعه نحوه) وأجتاز منطقة الخطر قبل أن يصلني (لست أدري لماذا نشأ لدي نوع من اليقين وقتها بأني لو وصلت إلى النقطة التي كانوا يريدوننا أن نقف فيها قبل أن يدركني، فلن يواصل مطاردتي. خيل إليَّ أنها منطقة أمان) لكن العسكري المندفع نحوي تمكن من أن ينشب يده في ذيل كنزتي المشقوقة غير المزررة التي لابد وأن الهواء كان يدفعها إلى

الخلف، وسدد لي لكمة تحت أذني جعلتني أمدد على البلاط السميك الصلد أطرافي الأربعة (دون أن أسقط أمتعتي) وكان كل همي عندها (من أول إحساسي باللكمة وحتي إحساسي بالأرضية القاسية تحتي) أن أنهض وأواصل فراري، تجنبًا للركلات المحتملة إن ظللت ملقى، وتفاديًا لمزيد من اللكمات. فنهضت سريعًا مستأنفًا ركضي، وأشبعت تلك اللكمة شهية العسكري للضرب.

منذ أن تجاوزت السادسة تقريبًا لم نكن يومًا على وفاق. تمدد فيما بيننا ما أسميه الآن سوء استيعاب متبادل. لم يستوعب متطلباتي وتطلعاتي ولم أستوعب رؤيته للعالم التي كانت تبدو لي، كلما تقدمت في العمر، شديدة الغرابة والصلابة. ورغم أني كنت أصغر أبنائه الذكور إلا أني لم أكن، خلاف ما هو متوقع، أثيرًا لديه. ما ظل يزيد الفجوة بيننا عمقًا واتساعًا أنني كنت قد ألقيت بنفسي، منذ فترة مبكرة، في حمأة التمرد والعصيان ثم أفكار وقيم الثورة في مختلف أبعاد الحياة وتفاصيلها.

ما من شك في أنه أحبني. ولكنه حب لم يبده هو ولم أستشعره أنا. حب مقلوب، يمكن القول. يتجه إلى داخله هو بدل أن يتجه خارجًا نحوي. حب دفين مرصود في صندوق سميك صلب كنواة اللوزة الصماء.

عندما خرجت من السجن كان قد مضى أقل من ثلاثة أيام على وفاته (توفي يوم الثلاثاء 1988.3.1 وأخرجت أنا يوم الخميس

(1988.3.3) قال عمي:

على ما عشت ما سمعتش مأتم ينقلب فرح. فرح ينقلب حزن سمعت بيه. لكن مأتم يولي فرح، هذي أول مرة.

كان عمي نابهًا في التقاط المفارقة، لكن أظن أنه لم يكن دقيقًا. لم ينقلب المأتم فرحًا، ولكن الحداد والفرح امتزجا امتزاجًا فريدًا، الموت والحرية أنتجا مزيجًا مدهشًا. كان الناس يصافحونني ويحتضونني مهنئين ثم يواسونني معزين، والغريب أن عددًا كبيرًا منهم كانت تتألق على أساريره علامات التهلل عند التهنئة ثم، مباشرة، يغيم الوجه منه ويتحدر عليه الدمع وهو يعزيني. لقد تحول المأتم إلى عزاء (بالمعنى الحرفي للكلمة). منذ حوالي أربع سنوات لم أره (منعت الزيارة نهائيًا في هذه السنوات الأخيرة) في اليوم التالي طلبت زيارة قبره.

كانت المرة الأولى التي أدخل فيها مقبرة. كان اسمه محفورًا في أسمنت شاهدة القبر. تخيلت أبي المهيب كفحل الإبل الفتي ممددًا تحته مغمض العينين بدون رغبات أو مخاوف تتجسد في أحلام أو كوابيس، ودون أن يستشعر لسعة برد أو لفحة حر لا يتذكر ماضيًا ولا يعي حاضرًا ولا يتوقع مستقبلاً، وقد شرع التحلل يسري في جسده القوي الذي لم يعرف المرض إلا نادرًا. هذا الجسد الماكر الذي عندما فوجئ أن المرض قد خاتل أجهزة إنذاره وتسرب إليه خفية كأي عنكبوت أو حشرة صغيرة ولم يكشف عن

نفسه إلا بعد أن تمكن واستفحل وأدرك أن أوان مقاومته قد ولى، فارق، فورًا، الروح المنهكة الدائخة التي صارت عاجزة عن مساندته مكتفيًا من الحياة بحوالي ثمانين حولاً مفوتًا عليه فرصة التنكيل به وإظهاره ضعيفًا عديم الحيلة وخائرًا، وهو الذي عاش متماسكًا منتصبًا مرفوع الرأس يشق الفراغ ويقولبه حوله أينما حل. صحيح أنه لم يهزم المرض. ولكنه حقق عليه انتصارًا بأن خيب رجاءه. وتذكرت عندها ذلك السجين الذي كان يبدأ، أيام وجبات الضرب، بالصراخ ما إن يسمع أزيز الباب المعدني الثقيل يفتحه الجنود، فلا يضربونه إلا ضربًا قليلاً، في حين ينهالون على أولئك الذين يغالبون الصراخ بضرب مبرح إلى أن ينخرطوا في صراخ حاد ناتج عن وجع لا يطاق طالبين الرأفة بهم.

وتصورته من تحت التراب يقول:

مابيتش نكدركم ونثقل عليكم. طلعت من الدنيا زي ماخشيتها. عشت فيها وماطلبتش منها غير الكرامة والستر. سايرت الزمان زي ما طاب خاطره، حاذيته، لاجريت نسبقه ولا لهثت وراه، وماكانش هذا ساهل. السمى ما طايلها حد والوطنى عشت عليها، سافرت فيها آلاف الكيلو مترات وحرثتها وزرعتها، غرست وعربنت ولقمت فيها آلاف الأشجار ياما كلت منها وما زالت تاكل ناس وحيوانات، تعفر جسمي بترابها وخش غبارها ريتي. أنا بلقاسم بن محمد شليق بن أحمد بن سعيد، الككلي، ولد عيشة بنت

عبدالصمد، درت إلي وصلني ليه عقلي وقدرت عليه، وإذا كان ما جبدني حد بخير ما اظنش فيه حد بيجبدني بشر.

الآن، بعد مرور حوالي سبع عشرة سنة على موته، أتساءل لماذا يخطر لي أحيانًا أن أشبه أبي بفحل الإبل. ربما بسبب قامته المهيبة وبدنه القوي وصبره الشديد. أتذكر أنه كان يتكلم مرة عن أحد مرافقيه إلى الحج الذي مرض هناك فقال يصف صبره في مواجهة المرض المبرح: صبره صبر جمال.

عندما تحصل هو وبعض أفراد الأسرة على إذن لزيارتي لأول مرة بعد شهور من السجن فوجئت به يجلس منهكًا ذابل الملامح دامع العينين. سبق أن رأيته باكيًا في مناسبة أو اثنتين. لكن هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها يبكي من أجلي. بدت نظرته مستسلمة مرتبكة يمتزج فيها الانحراج من بكائه والرغبة في إخفائه بمشاعر التعاطف معي والإحساس بضرورة أن يظهر لي حزنه عليّ. فآلمني ما حدث له. لقد زج به في نوع جديد من المشاكل أبعد ما يكون عن فهمه، ولا حول له ولا حيلة في مواجهته.

قال لي في الزيارة التي أعقبت الجلسة الأولى من محاكمتنا:

توا، زي ما شفنا، ما عندهمش عليكم حاجة. إلا إذا كان يحاكموا فيكم بعدين في مكان آخر محاكمة سرية، هذاك عاد الله وأعلم.

المسكين!.

لا أعلم كيف كان وجهي يبدو ونحن خارجون من جلسة النطق بالحكم، التي لم يتح للجمهور العادي حضورها، مربوطين من أيدينا كل اثنين بالأصفاد مقادين إلى سيارة السجن، وإن كانت المسافة التي بيننا قد مكنته من أن يقرأ فيه شيئًا، إلا أنه سألني من بعيد متلهفًا:

شنو صار؟.

رددت بسرعة:

مؤبد.

لم أشأ أن أتأكد من ردة فعله. لكنني لمحته، بزاوية عيني، يلطم، كأية ثكلى، مقدم وجهه بيديه وهو يتهاوى ببنائه الشامخ الذي لم يسبق له أن اهتز.

ستحكي لي أمي، وأكثر من قريب وقريبة، في أكثر من مناسبة، بعد خروجي، كيف أنه كان يجاهر بندمه على سوء معاملته لي وكيف أنه اكتشف، بعد فوات الأوان، أنه لم يقدرني حق قدري، ويتساءل ما إذا كنت سأسامحه.

وكأن تلك الصدفة، صدفة اللوزة الصماء، لم تكن لتتكسر وتفرج عن لبها بأقل من تغييبي في السجن.

الآن تذكرني حالة الإنهاك التي كانت تسري في كيان أبي في تلك الزيارة بحالة ذلك الجمل الذي توقف فجأة عن جر المحراث وبنظرته الكسيرة.

هل قلت بأني لم أكن أثيرًا لديه؟.

أكتشف الآن أن هذا الحكم لم يكن منصفًا. لم يكن موضوعيًا، إذا ما استبعدنا التعابير الأخلاقية. على العكس. لقد اتضح لي الآن أنه كان يؤثرني كثيرًا. والدليل على ذلك أنه أورثني أهم ما كان يميزه: تأتأته وعناده.

«لكن الأولى عبء محض». سيقول الجميع.

هذا أكيد إلا أني صرت أرى أن توريث ما هو مفيد فقط إنما يدخل في باب الشفقة، وهي شيء لا يرضى به الكثيرون، وأنا منهم بالطبع. أما توريث السراء مع الضراء فهو الحب الخالص.

لأن ذلك يعني أنه قد اصطفاني لأن أكون امتدادًا له.

انتهت يوم 2004.06.05

أمــي

لما جبتك، كان الربيع منور.

تحكي لي أمي أكثر من مرة.

كانت الدنيا ما زالت ضحى، وكان الجو سمح. كانوا جايينا ضيوف وكنت نُحَرُكَ في المطبخ نعوِّل ع الغدى. ناديت يا مبروكة، يا مبروكة، على مبروكة عمتك، ما ناضت ووصلت فيَّ، ما كانش خاطر عليها عاد، لين كنت جبت وكملت. مشت يا سيدي قصت سرتك، بموس المطبخ، قلتلها هذا كنت نقرض بيه في الثوم والبصل، قالتلي معناها نظيف وما فيه شيء ما تخافيش عليه، وبعدين خذاتك وكمكماتك.

ثم تضيف:

ما تعبتش في جيبانك بكل. بعدين تعبتني، بشطانتك.

كانت قد أنجبت قبلي، فرادى ومثنى، عشرة بين ذكور وإناث (لم أهتم بمعرفة عدد كل جانب) وبنتًا بعدي، ولم يتبق لها من مجمل الحصيلة سوى الثلث. ثلاثة ذكور والبنت التي جاءت بعدي.

عمري ما نزلتلي دمعة على عيل ماتلي، غير تركية. ربيت عليها كبد. ماتت كبيرة. عمرها عامين، تلعب وتجري وتضحك وتفرّز في الكلام وتفهم لما الواحد يطلب منها حاجة. لخرين ما كانوش يكملوا الحول.

كنت في حوالي السادسة من العمر عندما ختنت، ولم أبرأ من جرح الختان سريعًا. نهضت ذات صباح أتعجل التبول، فلم يخرج البول وكان الوجع حادًا، فأخذت أصيح. جاءت أمي وأخذت تدهن فتحة العضو المتوتر بالزيت فاندفع البول، كما لو من نافورة، ليصيب وجهها وملابسها. بعدها أحضروا لي مرهمًا فكانت تقوم، على مدى بضعة أيام، بنفس العملية وتتكرر معها نفس الحالة.

لا أذكرها، في أقصى نقطة من الماضي يمكن أن تلامسها ذاكرتي، إلا وهي تشكو من مرض غامض في أحشائها.

حاجة زي الغصة، حاشاك، زي الكورة، ترقى وتنزل بين بطني وصدري. آهيه. غير مس هنى.

تأخذ كفي وتضعها على النقطة التي يتواجد فيها، في تلكاللحظة، ذلك الجسم الغامض الذي يتمشى، ذهابًا وإيابًا، بين بطنها وصدرها.

آهيه. لقيتها؟.

لا أشعر بشيء، أو، على الأقل، لا أكون متأكدًا من أني قد لامست الجسم الغريب الخفي.

إيه . حق.

قال لها أخي الأوسط مرة:

باين هاذو جماعة يطبوا في الكورة.

فردت عليه:

يطبوا في راسك.

أكثر من مرة كنت أسمعها تقول لواحدة من صاحباتها:

مش بعيد عندي الراقد.

وأكثر من مرة أشاهدها تشرب مغلي بعض الأعشاب. لست أدري ما الذي جرى لأخـ(تـ)ـي الراقد(ة). لكن مرضها استدام وشكواها لم تنقطع، وكثيرًا ما كانت تمر ليال كاملة لا تكف فيها عن الأنين. وفي الليالي التي يعطيها فيها المرض راحة يعلو شخيرها. وكان أخي الأوسط يقول لها أحيانًا: شورك يا تئني يا تشخري. سكات ما فيش.

لكنني لا أتذكر أنها قضت، مهما اشتد بها المرض، يومًا بكامله طريحة الفراش.

كان الشغل مدار حياتها. فقد حصدت، تحت الحر اللاهب، الشعير والقمح، وجزت الأعشاب والحشائش، وجمعت الزيتون والتين الشوكي والجراد، احتطبت وجلبت الماء، على ظهرها أو مستعينة بحمارة أو حمار، من الآبار والمواجل والغدران، حلبت النوق

والأبقار والشياه والماعز ومخضت الحليب واستخرجت الزبدة وصنعت السمن، رحت وغزلت ونسجت وهرست الزيتون واستصفت منه الزيت، اعتلت متون الإبل والخيل والبغال والحمير وحملت الأثقال على ظهرها وتقلدت المناجل والمساحي والجواريف والفؤوس والهراوات (ويبدو لي أنها كان يمكن، إن استلزمت الظروف، وبقليل من الجهد في الإقناع، أن تحمل السلاح وتخوض المعارك، خاصة وأن صغر بنيتها يساعد على سرعة الحركة وسهولة التخفي. المسألة الوحيدة التي قد يستحيل إقناعها بها هي تخليها عن ملابسها التقليدية وارتداؤها ملابس ملائمة للقتال.) كما أنها تحملت، دون إذعان، ضربات أبي القاسية، وقتلت الكلاب.

كانت لدينا كلبة أخذت، في فترة ما، تتسلل إلى داخل المسكن لتلتهم العجين الذي كانت أمي تتركه كي يتخمر. لم تكن، بالطبع، تجد صعوبة في معرفة وجوده وتحديد مكانه. لم تحاول أمي أن تتفهم دوافع الكلبة، بل اعتبرت ذلك «خيابة طبع» أي «انحرافًا سلوكيًا» بتعبير آخر. أتصور أن تكييفها للقضية اتخذ السياق التالي: لم تكتف الكلبة بما كان يمنح لها، إضافة إلى ما كان يمكن أن تتحصل عليه في حياة البراري. إنها لم تكتف بحصتها وأخذت تتعدى على حصتنا. لقد جعلت، بسلوكها هذا، أمننا الغذائي مهددًا. عندما تتعارض مصالح البشر (خاصة إن كان هؤلاء البشر هي وأسرتها) مع مصالح الحيوانات، فالبشر أولى. لذا كان لا بد من

تصفيتها، وقد كان.

نادتها، ذات ضحى:

كسكس، كسكس، كسكس.

جاءت الكلبة راكضة. تمسحت بأمي هازة ذيلها. نهرتها أمي ملوحة بيدها في حركة إبعاد:

غادي . غادي . شر غادي.

تأخرت الكلبة قليلاً مصدرة، دون أن تكف عن هز ذيلها، صوتًا متوددًا، ثم التصقت بالأرض باسطة قائمتيها الأماميتين واضعة خطمها بينهما، مواصلة إصدار صوت التودد والامتنان (لعلها كانت تعتذر عن فعلتها وتعد بعدم تكرارها) ثم ثنت ذيلها إلى جانبها واستكانت رانية إلى أمي. ناولتها أمي عبود «زميطة» مخلوطًا بمادة سامة. التهمته الكلبة بشراهة شديدة، وماتت، حسب ما أذكر، في غضون أربع وعشرين ساعة.

كما عجلت، بنفس الطريقة، بموت كلب عاش معنا (وجدته قبلي) حتى أنهكته الشيخوخة وأضناه المرض. نادته باسمه:

سعد، سعد.

لكن يبدو أن حاسة السمع لدى سعد قد اعتراها الوهن، فكررت النداء:

سعد، سعد، سعد.

جاء سعد، الذي كان ينكمش ملتفًا على نفسه، مجرجرًا جسده، مجتهدًا في الالتزام بطقوس الولاء والعرفان، تناول الطعام المميت ثم انسحب إلى حيث كان يستكن. كان سعد هذا كلبًا يثير الدهشة. فهو لم يكن يسرق من بيتنا، بل كان يسرق من بيوت الآخرين، ولسنا ندري إن كان يستأثر لنفسه بشيء مما يسرقه، ولكنه كان يجلب لنا من مسروقاته ما يمكنه حمله.

ما أثار استغرابي، إلى حد كبير، أني لاحظت عندما كانوا يزورونني في السجن، قبل صدور الحكم وبعده، أنها كانت أكثر تماسكًا ومرونة في التعامل مع الوضع من أبي. لكنها حدثتني، بعد أن خرجت، أنها طوال مدة وجودي في السجن (تسع سنوات وشهران وسبعة أيام، أي ما يساوي: 3353 يومًا، بحذف يوم الدخول ويوم الخروج وإضافة يومين عن سنتين كبيستين) لم تذهب إلى حفل زفاف أو تقبل دعوة من أحد. وأعتقد أن بكاءها طوال هذه المدة عجل بنزول الماء الأبيض في عينيها مضعفًا بصرها إلى الحد الأدنى الذي لا يحوجها إلى من يقودها في كل تحركاتها.

يوم إخراجي من السجن صادف مرور حوالي ثلاثة أيام على وفاة أبي (الذي لم أره لمدة أربع سنوات، بسبب منع الزيارات). فكان كافة الأقارب وعدد كبير من الجيران متجمعين لدينا بسبب العزاء. ارتأى بعض الأقارب القائمين على شؤون العزاء وتنظيم استقبالي أن أبدأ بالسلام على النساء ثم أنتقل إلى مكان وجود الرجال.

خرجت النساء لاستقبالي في الشارع. أول من سلمت عليَّ كانت امرأة لا أعرفها. سمعت إحداهن تقول:

خلو أمه تسلم عليه هي لولى. خلوا أمه هي لولى.

تقدمت أمي، التي لم أرها منذ حوالي أربع سنوات، كانت الهموم والشيخوخة قد امتصت تألقها، فبدت مرهقة ومنهوكة القوى لا تكاد تقوى على فرد قامتها والسير. انحنيت قليلاً واحتضنتها قائلاً:

عظم الله أجرك.

سمعت همس امرأة مختلطًا بصوت أمي:

باين عليه سامع.

وأحسست بأمي تكاد تنهار وهي ترد:

الدوام لله.

فقلت لها بحزم وأنا أشدها لأساعدها على فرد قامتها:

شدِّي روحك. خيرك هكي. شدي روحك يا أمي.

أجابتني بصوت يصارع الإرهاق والضعف:

شادة روحي. أني أمك، يا عمر، أني أمك. شادة روحي.

يبدو لي أن جوانحها كانت تنطوي على ولع شديد بلذائذ الحياة ومتعها، ولع لم يقدر له أن يشبع. إذ كثيرًا ما كنت أشاهدها تتزين زينة يمكن إخفاؤها عن نظر اخويَّ الأكبر مني، وكانت، في

بعض ليالي الشتاء وبعد أن تكون قد استحمت في العشية، تفاحج فوق الكانون المتوقد الجمر المنبعثة منه سحابات من دخان البخور ليتشرب جسدها عطرًا دافئًا ويدخر دفئًا عاطرًا. وسمعتها مرة تحكي لواحدة من صاحباتها:

شهر رمضان في الشتى شن طعمته؟. شن تشتهي فيه؟. تصيمي النهار ولما يذن المغرب تاكلي، وخلاص. لكن رمضان في الصيف، تظلي تراجي غير آمتى يجي المغرب وأنت تتشهي في جفيمة أميه باردة، في دليليعة مسقعة، في عنيبات، خويخات، كريميسات... فيه شن تشتهي.

بعد ذلك بعقود، سوف يصرخ محمود درويش، في إحدى قصائده:

أشتهي أن أشتهي

(...............)

أشتهي

أو

أنتهي

طرابلس. (2-9). 2004.8.

منابت الحنظل

[يتمدد في الفراغ، ويضرب جذوره في الهشاشة. يتخذ ثمره، عندما ينضج، لون البشرة الملتهبة، لما تنطوي عليه جوانحه من سم ومرارة، ولا ينفتح إلا إذا ديس عليه. كما أنه لا يستفاد منه إلا بالمداورة والتحايل].

[لا] يدري لماذا أخذ الحنظل، منذ سنوات مديدات، يخطر على باله (أو، ربما، كان باله هو الذي أخذ يستدعيه) كثيرًا.

والحنظل نبات مداد، ينمو في التربة الرملية، ويدفع بجذوره نحو الماء، لذا يرى في الصيف شديد الخضرة، و: «... كلما ازداد ريا ازداد مرارة»، كما يقول المثل، وتضخمًا. ثمره بالغ المرارة لا يعرف أمر منه (حتى ليقال في التعابير الجارية «أمرّ من الحنظل» عن الأمور والحالات التي يتجاوز عنتها وإضناكها حدود المعقول) ويصير لونه، في ذروة نضجه، أصفر ضاربًا إلى البرتقالي ولا ينفتح من تلقاء نفسه.

ولكنه يتشبه بالنباتات التي تغل فواكه وبثمارها. فالهيئة الخارجية لثماره تشابه الدلاع، ويمكن أن يقارب حجمها حجم ثمار البرتقال المعروف بـ«بوسرة» وثمار الرمان وبعض أنواع الشمام (وكلها يمكن أن تشبه بها بعض أنواع النهود، ولا يجوز، طبعًا، تشبيه النهود بالحنظل). وتشابه أوراقه، إلى حد ما، أوراق العنب. لهذا السبب يطلق عليه البعض، إلى جانب أسمائه العديدة الأخرى، التفاح المر والخيار المر والدلاع الوحشي أو المر ودلاع الحمير وقثاء الحمار، ولا أفهم لماذا ينسب إلى الحمير، لكن، أغلب ظني، أنه نتيجة الاعتقاد بأن الحمير، لشدة غبائها، قد تحسب الحنظل دلاعًا أو قثاء، وليس لأن الحمير تتغذى عليه لأن الحيوانات، بسبب سميته العالية، لا تأكله. حتى الجمال، التي تأكل شوك القتاد، تمرض منه إذا أكلته نتيجة خطأ، فيقال: حظل البعير، إذا أكل الحنظل ومرض. ويعتقد أن الغزال يأكله، ومن هنا التعبير الشعبي: «الحنظل ماكلة الغزال»، لكنه، في الواقع، لا يأكل منه سوى الأزهار. الحيوان الوحيد الذي يأكله هو نوع من الجرذان.

- ما حكايتك مع الحنظل؟.

يسأله البعض.

فعلاً ما حكايته مع الحنظل؟.

الغريب أنه ليس له مع الحنظل، بحد ذاته، حكاية متميزة يمكن

أن تحكى. وعلاقته به دون المستوى العادي، إذ أنه ليس من المهتمين بشؤون النبات. وهو لم ير الحنظل منذ أن كان طفلاً، وحتى في تلك الفترة لم يكن يصادفه كثيرًا.

ومع ذلك صار الحنظل يأخذ بمجامع تفكيره ويلاحقه حتى في المنام: الشوارع يستقر على جانبيها الحنظل متألقًا تحت وهج الشمس أو الضوء، أو يقبع منطويًا مستجيبًا لمعطيات الظل أو العتمة. أو يتدحرج مسابقًا الأقدام والعجلات ومزاحمًا لها. كما أن الناس الذين يشاهدهم متحنظلون. فوجوه الرجال وأجسادهم وكذلك ملابسهم بلون الحنظل، ووجوه النساء تأخذ شكل الحنظل ولونه.. جدائلهن تتدلى متخذة شكل فروعه.. عيونهن خضراء بلون شحم الحنظل أو بنية فاتحة بلون بذوره.. وإذ يتعرين يكشفن عن حنظل معلق بصدورهن وقسم من حنلظة مكفي بين أفخاذهن يتوسطه شق يفتر عن ابتسامة خفيفة ترشح ترفعًا ونكاية، أو ينقبض في وجوم (قال: رضينا بالحنظل، لكن الحنظل لم يرض بنا). البيت يمتلئ بالحنظل، وفوق السرير وتحته تتمدد نباتات الحنظل، تزدهي أوراقها وأزهارها وتستريح ثمارها.

تقول زوجته:

- الغداء اليوم حنظل.

أو تأتيه بكأس طافحة قائلة:

- هذه كأس حضرتها لك من روح الحنظل.

فكر، من شدة سيطرة الحنظل على كيانه، في إهداء تعابير جديدة للغة العربية مدارها الحنظل. كالقول: ما هذه الحنظلية؟. إذا كان القصد التشدد في معاملة الناس والتصعيب عليهم دون مبرر يقبله العقل السليم. أو القول: رجل (أو شخص، بحيث يشمل المذكر والمؤنث) متحنظل. إذا كان المعنى أنه سيء الطباع مناكد يتعمد التضييق على من هم في مجال تأثيره. أما إذا أريد وصف شخص بلغت به صعوبة الحياة وبلغ ضيقه منها مبلغًا بعيدًا، فيقال عنه بأنه: محظول.

وما زال يعمل على هذا المشروع.

قالت زوجتي:

- صرت كثير الكلام عن الحنظل، هذه الأيام، وأراك تقرأ عنه كثيرًا، فما حكايتك مع الحنظل.

- أنوي كتابة قصة، البطولة فيها للحنظل.

فردت:

- ولماذا لا تكتب عن البصل؟. يبدو لي أن الكتابة عن البصل أسهل، لأنه معروف ومتداول، وتؤدي نفس الغرض.

لم أدر ما هو «نفس الغرض» الذي عنته. وبما أن «غرضها نفسه» بدا لي، من شيء في نبرة صوتها وتعابير عينيها وملامحها،

مبطنًا وغير بريء، لم أشأ أن أستوضحها، خشية أن أطأ على لغم عنقودي، قريب من السطح، بالغ الحساسية وشديد الانفجار، أو ألمس منها عصبًا عاريًا فينهمر عليَّ ما لا يرضيني. لذا آثرت أن أطلق بالونًا حراريًا يحرف رميتها ويشوش عليها:

- أبدأ الآن بالحنظل. ويمكن أن أكتب، لاحقًا، عن البصل، وحتى، عن الثوم والكراث.

- سيكون ذلك تطورًا يبشر بالخير. لأنك ستنتقل من الكتابة عما لا يؤكل، إلى الكتابة عما يؤكل.

وبسبب سميته العالية، يحدث الحنظل الأخضر إسهالاً وقيئًا شديدين ويكرب التنفس حتى ربما قتل، مثلما يقول ابن سينا. كما أنه يؤدي إلى الإجهاض.

ومع ذلك يحتال عليه البعض فيتخذون منه طعامًا.

وهذا ما يعبر عنه المثل الشعبي: «قالّه: شن لزك ع المر؟. قالّه: إليِّ أمر منه.». فخطر الجوع يدفع إلى ابتداع طعام من الحنظل. فعلى سبيل المثال يصنع منه التبو والقرعان، بجنوب ليبيا، أكلة تسمى (عبرا)، وذلك بغلي بذوره حتى تزول مرارتها، ثم تسحق بعد ذلك مع الجراد ويعجن الخليط مع التمر. وما زال أهل نجد إلى اليوم يحافظون على عادة عربية قديمة فيصنعون طعامًا من بذور الحنظل التي يسمونها الهبيد. فينقعونه بالماء والملح ويضعونه في

الشمس ويظلون يبدلون ماءه كل حين حتى تذهب مرارته، ثم يدقونه ويضيفون إليه طحينًا وتعمل منه عصيدة. ولا يؤكل إلا في حالة الجوع لأنه يسبب، عند الإكثار منه، إسهالاً.

وتقطيع الحنظل الطري لإخراج الهبيد منه يحرق أطراف الأصابع ويجعل العين تدمع والأنف يرشح.

قالت زوجتي:

- تضع ثمرات وغصن حنظل على مكتبك حين تكتب قصة عن الحنظل. فكيف سيكون الحال لو خطر لك كتابة رواية تدور بين أوساط البغايا؟!.

- لا تخافي. لن أحضرهن إلى البيت.

ثم:

- أذهب أنا للإقامة معهن.

حدجتني بنظرة نارية وهي تنسحب فارة من ضراوة المزحة:

- تفعلها والله.

لاحقها صوتي:

- من أجل منح البشرية عملاً أدبيًا راقيًا.

❖❖❖

تذكر أنه سمع من يقول بأنه لو داس إمرؤ وهو حاف على ثمرة حنظل وانفتحت تحت قدمه فإنه سيشعر بطعم المرارة في لسانه.

لماذا لا يجرب؟.

أحضر واحدة. نظف قدميه بعناية شديدة، ثم جاء بها. كان جسده يتشوك ونفسه تقشعر وتشمئز وهو يتخيل طعم المرارة وشدتها، وفكر في العدول عما بدا له لعبًا صبيانيًا حين أخذت نفسه تسأله لماذا يفعل ذلك ما دام ليس عالم نباتات أو مختصًا في شؤون المرارة. فليترك أمر التحقق من ذلك للمختصين. لكنه أكد لنفسه أنه لا بأس لغير المختصين من أن يتأكدوا من أمر ما، ثم أنه لا يتوقع أن تكون مرارة الحنظل المنطلقة من باطن القدم بتلك الشدة التي يخشى منها.

وضع الحنظلة تحت قدمه وهوى عليها بقوة مغمضًا عينيه ضاغطًا على أسنانه. سمع صوت أنفثائها وأحس بالمادة الطرية الرطبة تحت قدمه وظل ينتظر سريانها في جسده ووصولها إلى لسانه.

لم يشعر بشيء.

انتظر أكثر. ضغط بقدمه على أشلاء الحنظلة، وانتظر.

لم يشعر بشيء.

قرر أن يعيد التجربة بشكل آخر.

أحضر كمية كبيرة من الحنظل. استغل خلو البيت من الزوجة والأطفال، فأزاح البساط الذي يفرش الردهة ليترك مساحة عارية

فيها. ذهب واستحم. قطع كمية الحنظل. ألقى بالقطع على البلاط العاري. ثم أخذ يتمرغ بكامل جسده عليها، مثلما كان يفعل عندما كانوا يعاقبونه بالتمرغ في التدريب العسكري.

ولم يشعر بالمرارة على لسانه.

أخيرًا، كان لا بد أن يتجرأ على تذوقه مباشرة.

ولم يشعر بطعم المرارة. كان طعمًا مائعًا غير محدد.

تذكر بعدها بأيام أنه سمع، في طفولته، أباه يردد أنه إذا احتفظ الشخص بتمر في قبضته وفتح ثمرة حنظل بالدوس عليها بقدم حافية، ثم تذوق التمر، فسيجد طعمه شديد المارة.

رأى أن هذه تجربة معقولة، لأن آثارها تعاين من خلال مادة وسيطة.

لم يجد التمر مرًا.

لكنه وجده قد فقد حلاوته.

أثناء ذلك دخل عليه أحد أطفاله، فطلب منه أن يتذوق التمر الذي كان في قبضته. استجاب الطفل للطلب مستغربًا، وما أن لامس التمر لسانه حتى رماه متأففًا مشمئزًا باصقًا.

انتهت يوم 2004.12.3

دعوة على الغداء

لم تستقبله رائحة الطعام التي كانت، في المرات السابقة، تلاقيه على الباب، وحين يفتح له الباب ويدخل يقول لزوجة صديقه بأن رائحة طعامها تفوح في الشارع، مسيلة لعاب المارة. قال: لعلها أتمت الطبخ مبكرًا.

ضغط زر الجرس، فسمع صوته الأجش ينساب مرتطمًا بضفتي السقيفة الضيقة متوزعًا وسط المنزل غير المسقوف لينحل في موجة مضطربة من صخب الكلام غير الواضح وإيقاع خطوات مسرعة، ثم ران صمت.

آثر الانتظار على أن يعيد ضغط زر الجرس. سمع، من جديد، وقع خطوات متعجلة ثم صوت الزوجة قلقًا متوترًا:

- من؟!.

- أنا، صالح.

فتحت الباب بسرعة. كانت هيئتها مشوشة، مرهقة، وبدت على وجهها آثار بكاء وعنف. رفعت صوتها:

- أهلاً صالح. كيف حالك؟ كيف حال الأسرة؟.

ثم هامسه متلفتة في وجل:

- جئت في وقتك!. أدرك خليل. لا أدري ما الذي أصابه. منذ يومين لم ينم ولم يتركنا ننام، يضربني ويضرب الأطفال ويتحدث عن الخيانة.

كان مذهولاً فلم يعرف بماذا يرد. قال:

- ماذا؟!.

تداركت الزوجة:

- ليس الخيانة الزوجية. خيانة أخرى. لم يحددها.

دخل، فأغلقت الزوجة الباب خلفه هامسة:

- ربما تلبسه جن!.

ثم بصوت مرتفع:

- خليل في الحجرة الداخلية، ينتظرك. تفضل.

كان المنزل كله مضطربًا، على خلاف العادة حيث يجد الزائر نفسه محاطًا بنظافة ناعمة بشوشة ونظام دمث متحفظ.

نقر، بحذر وترقب، الباب المغلق، فانفتح، بعد برهة، كاشفًا عن وجه خليل بعينين منفتحتين على سعتهما، وجفنين منتفخين. ابتسم ابتسامة من نوع موارب مفسحًا له مجال الدخول:

- أهلاً وسهلاً بالصديق العزيز. أهلاً وسهلاً. يبدو أنك مركب من الكوارتز!.

حاول التصرف كما لو كانت الأمور في حالتها العادية. قال بعد أن جلس على كرسي من النوع الذي يستخدم لغرف الجلوس:

- لماذا الكوارتز تحديدًا، ليس الماس، مثلاً؟.

- لأنك تحضر في مواعيدك تمامًا. لك دقة ساعات الكوارتز.

- طبعًا يا رجل!. تريدني أن أتأخر فيضيع عليَّ الغداء.

قال بنفس الابتسامة الغامضة:

- لا؟!. جميل. خفة الدم حاضرة دائمًا.

قال محاولاً خفض التوتر:

- دقة المواعيد ناتجة عن الكوارتز، فبأي معدن ترتبط خفة الدم؟.

- لا أدري. لكنه معدن خسيس، بكل تأكيد.

ضحك الضيف مداريًا الإحساس بالإهانة، رادًا في ارتباك:

- يا رجل!. دمك خفيف فعلاً!.

فقط، عندما لفظ آخر حرف من جملته تبين له أنه قد رد على الإهانة. أراد أن يعتذر، لكنه خشي أن يزيد بذلك الوضع سوءًا.

تغيرت سحنة الصديق وانتبه الضيف إلى توتر يده التي كانت تمسك بمنفضة السغائر، واستعد للطواريء. دخلت الزوجة لتسأل:

- ماذا تشرب؟.

قال الضيف:

- لا شيء. شكرًا. ماء فقط، لو تكرمت.

- أحضري له ماء. ريقه ناشف.

قالت الزوجة مخاطبة الضيف:

- حاضر.

ثم خرجت.

حضرت للضيف فكرة. قال:

- عن إذنك لحظة. أريد الحمام.

قال صاحب البيت:

- خذ راحتك.

والضيف في باب الحجرة، أضاف:

- معنا وقت!.

لم يفهم الضيف المقصود وآثر عدم الاستفسار. إلا أنه تأكد من جدية الموقف.

أثناء عودته من الحمام نصح الزوجة بمغادرة المنزل هي

والأطفال بأسرع ما يمكن.

ردت الزوجة:

- من غير المعقول أن أتركه وحده وهو بهذه الحالة.

- سأبقى معه إلى أن اطمئن على حالته. سأتدبر الأمر. قد أستعين بأصدقاء آخرين.

- لابد أن أظل إلى جانبه.

قال الضيف:

- على الأقل أبعدي الأطفال.

سكتت. ثم قالت:

- ثمة سكين مفقودة. أظنه أخفاها عمدًا. لعله يريد أن يقتل نفسه.

قال الضيف:

- أصبح ضروريًا أن تذهبي أنت والأطفال. الذي يريد أن يقتل نفسه غالبًا لا يفعل ذلك بسكين.

عاد الضيف إلى الحجرة. كان صاحب المنزل يدخن جالسًا على كرسي جلدي قرب منضدة تتبعثر عليها كتب ومجلات وصحف.

جلس الضيف في مكانه الأول وانتبه إلى أن صديقه ينظر إليه بعينيه المتوترتين نظرة قاسية. قال الضيف مداريًا ارتباكه.

- مرت فترة طويلة منذ أن جلسنا آخر مرة.

قال صاحب المنزل:

- يبدو أنه قد ولت الأيام التي كنت تحرص فيها على رؤيتنا ومواصلتنا.

قال الضيف:

- هذا كلام لا أعتقد أنك تقوله على محمل الجد. أقبل عتبك بالطبع. أنت تعلم. تستنفد الواحد منا أحيانًا انشغالات لا معنى لها، ويقع أحيانًا أسير شبكته هو ذاته فيرتبك مزاجه ولا يجد من التناغم الداخلي ما يسمح له بمواصلة الأصدقاء.

قال صاحب المنزل:

- لم يقل أحد يومًا أنه تعوزك التبريرات.

ضحك الضيف:

- لست أدري إن كان هذا هجاء أم مديحًا. أنت تعلم أن التبريرات لا تعوز أحدًا. لكني غير محتاج إلى تبريرات.

دخلت الزوجة حاملة سفرة عليها كوبان من الشاي وآنية السكر وملعقتان صغيرتان، إضافة إلى إبريق ماء وكأسين فارغتين ومنشفة يدين. قالت بعد أن وضعت السفرة على المنضدة الخفيضة:

- وضعت به سكرًا. لكنه ربما لا يكون كافيًا.

قال الضيف:

- شكرًا.

- العفو.

قالت المرأة. ثم موجهة الحديث إلى زوجها:

- أريد أن أذهب أنا والصغار إلى بيت خالتي.

قال الزوج ناظرًا إليها بهدوء:

- استئذان أم إعلام؟!.

ردت الزوجة محاولة الابتسام وممددة الكلمة:

- استئذان!.

قال الزوج:

- في جميع الأحوال، لا أحد يمنعك.

سألت الزوجة:

- هل تحتاج شيئًا؟!

قال الزوج:

- أستطيع أن أتدبر أمري.

خرجت الزوجة.

تذوق الضيف الشاي فوجده ناقصًا سكرًا، كما أنه لم يرض على درجة نضجه. لكنه قرر شربه. أضاف إليه نصف ملعقة سكر

وحركه ثم تذوقه من جديد. لم يضف إليه السكر مرة أخرى. كان يسمع، في هذه الأثناء، ضجيجًا متكتمًا وحركة مستعجلة في المنزل. لم يمسس صاحب المنزل شايه. ارتشف الضيف رشفتين متتاليتين واحتفظ بالكوب في يده. فتحت الزوجة الباب مرة أخرى وقالت دون أن تدخل:

- نحن ذاهبون!.

هز الزوج رأسه ولم يتكلم. دخل الابن الأكبر، حوالي الحادية عشرة، مكفهر الوجه مرتبكًا فسلم على الضيف أولاً ثم اتجه إلى أبيه وعانقه باكيًا:

- مع السلامة يا بابا.

وضع الأب يده التى لم تكن تمسك بالسيغارة خلف ظهر ابنه:

- مع السلامة:

قال الابن:

- لعلك تحتاج شيئًا؟.

قال الأب:

- سلامتك.

قال الابن:

- انتبه إلى نفسك!.

هز الأب رأسه دون أن يتكلم. كانت الأم تتابع المشهد في صمت. وعندما انتهى الابن من توديع أبيه، همست، بصوت مغموس في العبرة، مفسحة له مجالاً للخروج:

- هيا.

ثم موجهة الكلام للرجلين:

- تركت لكما بيضا مقليًا ويوجد جبن وزيتون وتن وزبادي ومشروب. يوجد لحم أيضًا، يمكنكما قليه إن أردتما. مع السلامة.

ثم أغلقت الباب.

سمعت في الحجرة المقفلة، خافتة، أصوات حركة الخروج وانغلاق باب المنزل.

ران الصمت على المنزل متكثفًا في الحجرة التي يجلس فيها الرجلان. امتص صاحب المنزل نفسًا طويلاً من سيغارته ولم ينفث من الدخان إلا قليلاً، ثم تناول جرعة من الشاي البارد وظل ينظر إلى الفراغ. رشف الضيف من شايه رشفة واستغل شرود صديقه ليتأمله بحرية، فلربما استشف أوفق الطرق للتصرف. كانت نظرات الآخر الساهمة قاسية ومرهقة وكان جسده يبدو مشدودًا، ولكن دون أن يكون متململاً.

لم يكن هكذا في السابق.

كان دائم الانبساط والحيوية وعلى قدر واضح من المرح. فما

الذي غيره هكذا فجأة. المدة التي لم يلتقيا فيها قصيرة لا تبلغ الثلاثة أشهر. تذكر أنه التقاه، قبل أسبوع مضى، في أحد المحلات هو وزوجته. كان قد انتبه إلى الزوجة أولاً التي سرت برؤيته ونادت زوجها الذي كان في زاوية أخرى من المحل. فجاء مرحبًا. يتذكر الآن أنه تجاهل، آنذاك، شعورًا بأن الترحيب كان يخلو من حميمية اعتادها. دعته الزوجة إلى أن يأتي للغداء عندهم في أحد الأيام، وهو أمر كان يحدث على فترات متباعدة، فتم الاتفاق على اليوم.

قرر الضيف المغامرة:

- لا تبدو كعادتك!.

نظر صاحب المنزل إلى الضيف نظرة مركزة وطيدة ثم أتى بحركة اشتركت فيها شفتاه وعيناه ورأسه وكتفاه يمكن تفسيرها على أنها: لست أدري. جائز. امتص بعدها سيغارته محررًا الدخان بعد قليل:

- عندما كنت أبدو كعادتي، أي على ما أنا عليه، وكنت أعتقد أن الآخرين، بعض الآخرين، يبدون هم أيضًا كعادتهم، كانوا في الواقع يبدون على غير ما هم عليه. كان لهم ظاهر وباطن. وعندما اكتشفت ذلك قررت، لا أن أبدو على غير عادتي، وإنما أن أغير عادتي.

صمت صاحب المنزل مستقرئًا تأثير كلامه على الضيف، وصمت هذا الأخير لازدياد شدة دوامة الغموض والمفاجأة.

لم يجد الضيف بدًا من المغامرة بمزيد من الاقتحام:

- دعك من التهويمات ووضح الأمر. وإلا فسنظل على هذا الوضع حتى الصباح.

امتص صاحب المنزل سيغارته مصة أحرقت ما تبقى منها. نفث الدخان وهو يسحق عقبها في المنفضة. تجرع ما تبقى من الشاي في كوبه. نظر نحو الضيف نظرة راسخة:

- لا، لا. لا أستطيع أن أظل حتى الصباح على هذا الوضع.

اتخذ في كرسيه وضعا مريحًا. شبك يديه على حجره:

- لا يحتاج الأمر إلى إيضاح. ولكن ليكن ، ما دمت تريد توضيح الواضح. ما زال لدينا وقت.

صب في كأسه بعض الماء، تجرعه متمهلاً. عاد إلى وضعه السابق:

- اسمع، يا سيدي، الحكاية من أولها: كانت زوجتي وأبنائي قد سافروا للبقاء مدة عند ذوي زوجتي وبقيت في المنزل وحدي. بعد أيام من بقائي وحدي كانت قطة تتسلل إلى المنزل في وقت القيلولة، الوقت الذي أكون فيه مستغرقًا في نوم ثقيل، وتتبرز أمام الحجرة التي كنت أنام بها. الغريب أنها كانت تتبرز دائمًا في نفس النقطة وأن برازها كان دائمًا سائلاً وذا رائحة كريهة نفاذة لا تطاق تجعلني أستيقظ من عز نومي، وتكون هي قد فرت. لم تكن تفعل ذلك

يوميًا، بل على مرات متباعدة غير منتظمة، ما جعلني افترض في كل مرة أنها المرة الأخيرة. حاولت الترصد لها لقتلها ولكني كنت دائمًا اضطر إلى النوم قبل أن تأتي. وكان عليّ أن أتساءل: لماذا اختارت هذه القطة منزلنا؟. ولماذا تأتي في موعد معين تقريبًا؟. لماذا تلتزم بالبقعة ذاتها؟. ولماذا تكون مخلفاتها دائمة سائلة وبالغة العفونة؟. وكيف اكتسبت، أصلاً، عادة إفراغ معدتها في موعد يكاد يكون ثابتًا؟. أسئلة تطرح نفسها كما ترى، وأنت رجل منهجي ومن دعاة التفكير العلمي، وتؤشر نحو فرضيات معينة.

سأل الضيف:

- من مثل؟.

قال صاحب المنزل:

- من مثل!.

ثم تناول جرعة شاي. أشعل سيغارة. سحب منها نفسًا عميقًا ناظرًا، وهو يحرر جزءًا من الدخان الذي سحبه، في عيني الضيف مباشرة:

- أقول لك من مثل ماذا. من مثل أن القطة لا تتصرف من تلقاء نفسها كقطة. فسلوكها هذا يتنافى مع ما نعرفه من سلوك القطط. الجميع يعلم أن القطط تبحث، عندما تريد التبرز، عن مكان به تراب فتحفر فيه قليلاً ثم تتبرز في تلك الحفرة وتغطي

برازها. فلماذا تأتي هذه القطة من مسافة يعلمها الله لتتبرز في نقطة محددة لا تتوافر فيها المواصفات والمعايير المعتمدة قططيًا؟!. لابد أن وراء ذلك تدبير محكم ومخطط لا يمكن أن يكون قططيًا، اللهم إلا بالمعنى المجازي. الأمر الذي مفاده، ببساطة، أن هناك من درب القطة على ذلك ويبرمج اشتغال جهازها الهضمي ويحضرها إلى مكان قريب من المنزل ثم يطلقها، وبعد أن تنهي «مهمتها» تعود بنفسها.

أخذ جرعة ماء أخرى وسحب نفسًا آخر من سيغارته، ثم سأل الضيف:

- هل لديك اعتراض؟!

زم الضيف شفتيه في صمت. جرع ما كان بكأس الماء الذي بقربه. ارتشف رشفة متبقية في فنجان الشاي. قال:

- أعطني سيغارة!.

قال صاحب المنزل:

- عهدي بك لا تدخن!.

ثم ألقى إليه بسيغارة قائلاً:

- لكني لم أعد أستغرب تغير البشر الفجائي.

تلقاها الضيف. وضعها في فمه. توقع من الآخر أن يشعلها له. لكنه لم يفعل. نهض من على كرسيه ثانيًا جذعه إلى الأمام. مد يده

وتناول الولاعة من على المنضدة التي يجلس إليها صاحب المنزل. أشعل سيغارته وسحب منها نفسًا لم يتجاوز دخانه فمه ثم نفثه.

قال صاحب المنزل:

- أنتظر إجابة!.

قال الضيف:

- عرضك محكم وتبدو فرضياتك متماسكة. ليس بوسعي، الآن على الأقل، معارضتها.

سحب نفسًا آخر من سيغارته ونفث دخانه:

- كل ما يمكنني قوله الآن هو أنه ينبغي ، في مثل أمور بهذه الخطورة، تبني أقصى الحذر والتريث.

قال صاحب المنزل:

- دائمًا لا تعوزك النصائح!.

حاول الضيف أن يقحم شيئًا من المرح:

- ولماذا تريدها أن تعوزني؟.

تجاهل صاحب المنزل المحاولة قائلاً:

- لم تنته الحكاية. أم لا تريد أن تسمع؟!.

- أبدًا. أريد أن أسمع.

أكمل الآخر:

- لقد تريثت فعلاً. حدثت هذه الأمور، أول ما حدثت، منذ سنتين. في غياب الأسرة كما قلت لك. بعد أن عادت الأسرة توقف الأمر تمامًا، طيلة أكثر من سنة. عندما غابت الأسرة منذ أشهر في هذه السنة. تكرر الأمر مجددًا.

سحب نفسًا من سيغارته... أطفأ العقب بقوة في المنفضة:

- وكان لابد من طرح سؤال بسيط: لماذا لا (أو ، بالأحرى، لم) يحدث ذلك إلا في غيبة الأسرة؟!.

صمت قليلاً، ولم يعلق الضيف.

- المهم. في المرة الأخيرة نجحت في تغيير مواقيت نومي وظللت أترصدها. باختصار، ضبطتها وقتلتها. وكانت المفاجأة القاصمة.

صمت صاحب المنزل، فاضطر الآخر إلى أن يسأل:

- ما هي هذه المفاجأة!.

ملأ كوب الماء من الإبريق. شرب معظمه:

- المفاجأة، يا سيدي، أن هذه القطة كانت لنا. كانت عندنا منذ أن كانت صغيرة واختفت فجأة ونسيناها، أو بالأحرى نسيتها أنا.

قال الآخر:

- لكن القطط تتشابه كثيرًا. لا يستطيع أحد أن يجزم بأنه متأكد من تعرفه على قطة بعد فراق سنوات.

قال الآخر:

- «فراق سنوات!». سخرية لا بأس بها!.

قال الآخر:

- لم يكن قصدي السخرية.

قال الآخر:

- المهم. لديّ دليل على أنها هي. وهو أن هناك أثرًا لكي صغير فوق منبت ذنبها، كان قد أحدثه بها أحد أبنائي، وقد وجدته.

سكت بعد توقيعته الأخيرة، وظل الآخر واجمًا. أطفأ سيغارته بعد أن سحب منها نفسًا أخيرًا، ثم قال:

- أظن أن الأمور صارت واضحة!. أخذت القطة من هنا بناء على تخطيط وتمت مؤالفتها في مكان آخر، عودت، عبر عملية منظمة صبورة فيما يبدو، على التبرز في هذه النقطة بالذات، يتم، بطريقة ما التحكم في موعد تبرزها ونوعية برازها، يجاء بها إلى نقطة قريبة من هنا قبيل الموعد وتطلق، فتجيء إلى هذا المنزل الذي كانت قد تربت فيه وتعرفه وتعرف منافذه. هل هناك تفسير آخر ممكن، حتى وإن كان أقل إقناعًا؟.

زم الآخر شفتيه وحرك يديه:

- ماذا أقول؟!.

- لم يعد بإمكانك قول شيء. تجاوزت الأمور تلك النقطة. لابد من الاعتراف.

أحس الضيف، بشكل مؤكد الآن، أن صاحب المنزل كان يحاول، منذ أن وصل، أن يبلغه رسالة مبطنة ما. «لابد من الاعتراف». الاعتراف بماذا؟. أن الوقائع والاستنتاجات صحيحة؟. أم بشيء آخر أخطر؟.

نهض صاحب المنزل متثاقلاً:

- عن إذنك. دقائق.

- تفضل.

سار بضع خطوات حتى وصل الباب، ثم استدار مواجهًا له سادًا الباب بقامته الطويلة وبنيته العريضة القوية:

- خلال هذه الدقائق القليلة خذ راحتك. لعلك تريد أن تكتب شيئًا!.

قال الآخر:

- أكتب ماذا؟.

- لست أدري!.

ثم:

- وصيتك، مثلاً!.

وضحك ضحكة متوترة:

قال الآخر محاولاً إخفاء قلقه:

- إذا مت يمكنك أن تسدد ديوني.

ذهب الآخر دون أن يعلق.

أمعن التفكير في الحالة. يبدو أن الوضع شديد التعقيد ولا يمكنه أن يفعل إزاءه شيئًا، كما لا يستبعد أن يكون هناك خطر من نوع ما يمكن أن يطاله هو شخصيًا. استغرب التحول المفاجيء الذي ظهر على صديقه. حاول التفكير بسرعة في القيام بتصرف متزن. لقد وعد الزوجة بالتصرف بشكل إيجابي.

عاد الآخر حاملاً منشفًا صغيرًا يجفف به يديه. علق المنشف على يد الباب وجلس على كرسيه:

- كنت أتوقع أنك ستخرج!.

قال الضيف:

- ولماذا أخرج؟!. ودون أن أقول لك؟!. لقد جئت من أجل رؤيتك. مضت بضعة أشهر دون أن نلتقي.

- كنت أعتقد أن الأمر انكشف لك!.

- أي أمر؟!.

قال الآخر:

- أي أمر؟!. ماذا كنا نخرف منذ الصباح؟!.

قال الآخر:

- أنا لم أكن أخرف!.

قال الآخر:

- معك حق!. أنت لم تكن تخرف؟!. أنا من كان يخرف، وأنت لم تفهم مدلول هذا التخريف.

ثم نهض واقفًا:

- الآن أفهمك.

أدار للآخر ظهره. ركع على ركبتيه باتجاه المنضدة مدخلاً رأسه تحتها. فك من سقفها شريطًا لاصقًا وتناول شيئًا. وقف. استدار ليكتشف الآخر أنه قد استل سكينًا طويلة. ظل واقفًا قابضًا بيده المدلاة على السكين:

- كنت أتمنى أن تكون قد حدست الأمر وخرجت. أما وأن نباهتك قد خذلتك، مثلما تعودت أنت، فيما يبدو، أن تخذل الآخرين، فلا حيلة لي في ذلك.

رفع السكين متحسسًا حدها بأصابع يده الأخرى:

- لم تفهم أني قد اكتشفت المؤامرة!.

ظل الآخر صامتًا:

- لابد وأن تدريب القطة على التبرز في المكان المحدد من المنزل قد تم بموافقة زوجتي. ولا يوجد شخص يمكن أن يقنعها بذلك سواك.

قال الآخر:

- ولماذا نفعل أنا وزجتك ذلك؟. ولصالح من؟!.

قال الآخر وهو يتقدم قليلاً:

- هذان سؤالان تجيبان عليهما أنتما. ليست هذه مهمتي.

وجد الآخر الجرأة ليقول:

- ما دمت قد أجبت على الأسئلة السابقة فلماذا لا تجيب على هذين؟.

- يهمني المجرمون وليس دوافع الجريمة!. كما يهمني أن ينال المجرمون جزاءهم. أشرع السكين، فلمع نصلها على ضوء شمس ما بعد الظهيرة الراشح من قماش ستارة النافذة الأبيض. نهض الضيف مرتعبًا:

- لا أحب هذا النوع من المزاح!.

- مزاح؟. تقديراتك تخطيء أحيانًا.

- تعقل يا خليل!. تعقل يا رجل!.

لكن الآخر شرع يتقدم بقامته الفارهة العريضة في الجلباب الرمادي السابغ بعينين جاحظتين محمرتين تشعان قسوة وسخطاً. لم يلح للآخر مجال للهرب. أي اشتباك جسدي سيخسره لا محالة. وما من معنى للصراخ.

- هذا غير معقول يا خليل!. تعقل أرجوك!.

لكن يبدو أن الآخر لم يعد يسمع. ظل يتقدم، ببطء شديد، مركزًا بصره على جسد العدو.

انتاب الضيف شعور طاغ مباغت بعبثية الحياة وألاعيبها فقرر الارتماء في العبث. اعتدل في وقفته رافعًا رأسه، وأغمض عينيه منتظرًا الطعنة أو الطعنات، وكأنه كان، منذ زمن بعيد، يتخيلها، يحلم بها، يتمناها، يتوقعها، يترقبها، ينتظرها، يشتهيها...

وها هو يتلقاها

انتهت يوم 2004.12.6

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

أكـــوام الريش

تحركت السكين في الهواء حركات استعراضية. ولأن نصاعتها كانت منطفئة، فإنها لم تلتمع في الضوء الثقيل المحصور في الزقاق الضيق ذي الجدران الكامدة. ربما، لذلك، كانت تحمل شحنة من الرعب كان يمكن، لنصر خليفة، تحديها.

ومع ذلك فقد فكر في النجاة بنفسه. لعله سمع هاتفًا داخله يهيب به: النجاة يا نصر النجاة، وبدا له الموت بسكين صدئة وبيد مجنون موتًا لا يليق بكرامته، أو أن أوان الموت، من أي نوع كان، لا ينبغي أن يحين الآن.

لكن الفرار في موقف كهذا لا يليق، هو الآخر، بكرامته. خصوصًا أمام سلاف.

لو أن المأزق الذي يواجهه الآن وقع في ظروف أخرى ينعدم فيها وجود أحد يعرفه، فمن المرجح أنه كان سيلوذ بالفرار. ثم ماذا لو طارده خصمه الطارئ وأدركه. تذكر سرعته في الركض في المسافات القصيرة، ويمكن أن تساعده كثرة المنعطفات والأزقة على

التخلص من مطارده وهناك احتمال أن يتدخل الناس. لكن ماذا لو تعثر ووقع أو تورط في دخول زقاق لاطم.

سمع سلاف تلح عليه:

- دعك منه. واضح أنه مجنون.

فعاد ووزن فكرة الهرب.

لكن الفتى رد عليها:

- اسكتي يا قحبة!.

ثم موجهًا الكلام له وملوحًا بالسكين:

- تقدم يا مأبون!.

ثارت ثائرة نصر واضطر إلى التقدم، بترددٍ أكثر منه بحذر. اندفع الآخر نحوه ولم يمهله. صرخ صرخة حادة وهو يفاجأ بالسكين تخترق ضلوعه. ثم أصدر آهة حادة، والسكين تنسحب خارجة، قائلاً وهو يستجمع الهواء ويغالب ألمه:

- يا ولد القحبة!.

شعر بأنه يكاد يسقط، فاتكأ بيسراه على كتف طاعنه مبقيًا يمناه تضغط على موقع الطعنة. وجدها الآخر فرصة فسدد طعنة أخرى إلى معدته. أنَّ أنة مكتومة ولم يقل شيئًا. حول يديه إلى معدته. وتهاوى متكومًا فوق أسمنت الشارع موزعًا جهده بين إقفال

فمه والضغط على أسنانه لتحمل الوجع، وفتح فمه شاهقًا من أجل الحصول على أكبر كمية من الهواء.

شعر بعرق بارد يبلل جبهته ووهن يدب في جسده، وأحس بوقع أقدام (كان يمكنه أن يرى بعضها) وسمع ضجة أصوات مختلطة، لم يميز من بينها صوتًا نسائيًا.

قال: فعلاً. وتذكر الشعراء الذين يرثون أنفسهم بشعر راق وهم يحتضرون، أو الأدباء والحكماء الذين يدلون، كما لو أمام مصورات ولاقطات صوت، بعبارات بليغة وحكم بارعة وهم على فراش الموت. أجهد ذهنه من أجل أن يفعل مثلهم فيما بقي له من دقائق.. خطر له أن يقول بضعة أسطر شعرية:

في لحظة الروع فرت، وأزال دبيب الموت آثار قبلاتها من شفاهي.

لكنه فكر في أنه ينبغي أن يهتم الآن برثاء نفسه. خطر له أن يقول:

كنت متفتحًا أرنو إلى المعالي، وها أنا بسكين صدئة، في يد مجنون أموت.

وانقطع التدفق. فكر في أنه من الأفضل أن يقول حكمة قصيرة عن عدم الأمان وعبث الحياة. لم تطاوعه قريحته.

ثم تبين له عبث الفكرة برمتها، إذ من سيهتم الآن بحفظ أو تسجيل ما يقوله ليذيعه، فيما بعد، على الناس!.

شعر بأيد تمسكه من أطرافه وأدرك أنه يحمل ويهرول به.

ازدادت برودة العرق على جبينه وجعله إيقاع الهرولة يشعر بارتخاء ورغبة في التمدد والنوم، فأغمض عينيه متمنيًا أن ينام نومًا يفضي به إلى الموت مباشرة أو يستيقظ ليجد نفسه، مباشرة كذلك، سليمًا معافي. واستغرب من أن الموت لم يبد له مروعًا مريكًا، مكتشفًا أنه كان يحمل فكرة خاطئة عن الموت، وأحس بنفسه يردد في ذهنه:

أيها الحبيب الذي يبدو دومًا في هيئة عدو،
يا من لا تأتي إلا مع الرمق الأخير
لتمدد أصفياءك
على وثارة الغفوة الأبدية،
ها أنا أكتشف عذوبتك،
فاغفر لي سوء الظن، يا حبيبي،
أيها الموت.

سمع بكاء. بكاء حارقًا لم يميز مصدره. ثم صار يتضح. إنه بكاء رضيع مريض. طفلة. ثم تجسد له المشهد: طفلة ملفوفة في القماط (لفائف قماش قطني أبيض) مغطاة بطرف رداء نسوي (بني فاتح مزين بزهور ذات لون أزرق سماوي) بالقرب منها امرأة شابة جميلة تقوم بالرحي. ضوء الغروب يزداد فتورًا داخل الكوخ

وطفل في الخامسة أو السادسة يتلهى بالقرب منهما. زوجة أخيه توليه ظهرها هو وابنتها منشغلة برحاها، وهو يتقلب فكر، ساهيًا عما حوله، أن يمد دحرجته أكثر. وهو يتدحرج شعر بملامسة شيء مرتفع قليلاً كالوسادة فدفع جسده بقوة أكبر كي يتجاوزه. انكتم الصراخ قليلاً ثم علا، وتدحرج هو بسرعة عائدًا لمكانه الأول. انكتم الصراخ ثم علا. انتبه إلى أنه كان قد تدحرج فوق جسد الطفلة. مر بثقله فوقها مرتين. لم تنتبه الأم.

بعد يومين أو ثلاثة ماتت الطفلة، ودفنت.

دفنت الطفلة تحت التراب، ودفنت الواقعة في وجدانه.

وجد وجه شبه بين موته (الحثيث) وموت الطفلة. ماتت ابنة أخيه، سهوًا، خلال لعبة. وها هو يموت في حادثة تشبه اللعبة. كان المجنون يتقمص دور القاتل وكان هو يحاول أن يتقمص دور اللاهياب، فوقع سوء التفاهم. ثم خطر له أن دوره في الحادثتين كان دور اللاعب وكان دور الطرف الآخر دور الجاد، مع انعكاس النتيجتين.

انبثقت في ذاكرته حادثتان أخريان كان فيهما هو الطرف الجاد (الغافل) وكان الطرف الآخر الممثل (الخادع).

شاهد نفسه يركض خلف حمامة قفزت، فجأة، من شجرة لتأخذ بالزحف على الأرض صافقة أجنحتها في اضطراب، الأمر الذي يجعله يعتقد أنها مصابة، وأنه بالإمكان الإمساك بها، فيأخذ

بالركض وراءها وكلما اقترب منها تطير مبتعدة ثم تحط منتظرة اقترابه لتطير مجددًا، وبعد مسافة كبيرة ترتفع في الجو مبتعدة.

قالت له أمه:

- تلك تقوم بالتعمية لإبعاد الخطر عن عشها!. لا تتبع حمامة في هذه الحالة مرة أخرى.

بعدها سمع غناء وموسقى وشاهد أناسًا يرقصون. كان عرسأخيه. جاءه بعض الأطفال وقالوا له:

- اهرب سيقومون بختانك.

لم تكن له فكرة واضحة عن الختان. لكنه استجاب للتحذير. إلا أن صوت أبيه الخشن الآمر جعله يعود طائعًا.

شهد نفسه محمولاً في حضن أبيه، ثم وهم ينزعون عنه ملابسه ويلبسونه جلابية بيضاء جديدة ليمدد، بعدها، على ظهره فوق حصيرة مفروشة ببطانية تغطيها ملاءة بيضاء. جلس عمه مقرفصًا عند رأسه وأمسك بيديه في إحكام. أمسك أبوه بإحدى ساقيه وأمسك رجل من أقربائه بالأخرى وانتبه إلى وجود رجل لا يعرفه يرتدي ملابس أفرنجية يخرج أشياء من حقيبة جلدية. ابتسم الرجل في وجهه قائلاً:

- لا تخف!.

دخلت أمه حاملة طنجرة متوسطة الحجم. أخرجت منها بيضة

ومدتها إليه. مد يده فوضعت أمه البيضة في كفه، وما أن حاول الإمساك بها حتى نتر عمه يده بقوة مسقطاً البيضة منها. حاول أن يمد يده ليأخذها فقال عمه:

- ما دامت سقطت فدعك منها. ها هي بيضة أخرى.

كانت أمه تمد بيضة ثانية وشعر بيد الرجل الغريب تمتد وتمسك بعضوه. حاول أن يستطلع ما يجري فقال عمه:

- خذ البيضة، خذ البيضة.

وضعت أمه البيضة في كفه، ففعل عمه معها ما فعله مع الأولى:

- دعها، دعها. خذ أخرى.

كان الرجل الغريب يعبث بعضوه وشعر به يدهنه بشيء ما. أسقط عمه البيضة وأحس لحظتها بوخز في عضوه فصرخ، من المفاجأة والخوف أكثر منه من الألم. قال عمه:

- خذ، ها هي بيضة أخرى.

تناولها، فلم يسقطها عمه هذه المرة. أنهى الغريب لف عضوه بالشاش. ثم قال:

- بالشفاء وطول العمر.

وأخذ فوراً يجمع معداته ويعيدها إلى الحقيبة. حرر عمه يديه، وحرر أبوه وقريبه ساقيه، ووضعت أمه إلى جانبه الطنجرة المليئة بالبيض المسلوق وخرجت.

لم يكن يفكر ولم يكن يتذكر. كانت الأفكار تنصب في ذهنه والأحداث والمشاهد تنبثق حية في مخيلته، بل أمامه.

شعر بمزيد من الارتخاء في جسده وفتور أشد في حواسه ولم يعد يتبين وضعه تحديد أو لا أين هو، فأسلم نفسه لهذا الإحساس.

ارتمت الحمامة، فجأة، على مبعدة أمامه وأخذت تتخبط. اندفع إليها، فابتعدت صافقة جناحيها دون أن ترتفع على وجه الأرض. جرى خلفها وهو يسمع بكاء بعيدًا ميز فيه بكاء رضيع. أخذت الحمامة ترتفع ، في كل مرة، أكثر. سمع صوتًا يقول له:

- اتركها. إنها تخدعك.

ميز صوت أمه. شعر بأنه يطير خلف الحمامة. تحته كانت سلاف تلوح بيديها صائحة:

- عد، إنها تخدعك.

لكن الصوت كان صوت أمه. انتبه إلى اختفاء الحمامة ورأى ابنة أخيه تطير أمامه في قماطها ضاحكة. ثم أخذ الضوء يشح بسرعة، وأحس بنفسه يقترب من الأرض ببطء، ولكن رغم إرادته. أظلمت الدنيا وأحس أنه يسقط على أكوام من الريش وأن تنفسه يزداد صعوبة، وكلما فتح فمه ليتنفس امتلأ ريشًا، وصعب عليه الحصول على الهواء...

انتهت يوم 2005.2.22

الشيء الذي ينأى

كتبت هذه القصص في الفترة الواقعة بين سنتي 72-78م، ونشرت في الصحف والدوريات الليبية التي كانت تصدر في تلك الفترة، وأعيد نشر بعضها في صحف ودوريات عربية في حقبة التسعينيات. ولأنه لم يتسن لي إصدارها - باعتبارها مجموعتي الأولى - قبل صدور مجموعتي الثانية «صناعة محلية» ولانقضاء كل هذه المدة، لم يعد نشرها كمجموعة مستقلة يبدو لي ممكناً. لذا ارتأيت ضمها إلى الكتاب الحالي.

عمر أبو القاسم الككلي

إلى صديقي عبدالعزيز الغرابلي «زيزو».

تراكم على جسده التراب.

لكن، لن يتراكم على ذكراه غبار النسيان.

عمر أبو القاسم الككلى

الخارج والداخل

ليسا صديقين بالمعنى المنتشر/ كل منهما يعتقد أن الآخر يكن له احترامًا ممزوجًا بالتهيب والحذر/ صدفة - كالعادة/ التقيا/ كان أحدهما جالسًا وشاهد الآخر يدخل/ كان أحدهما داخلاً وشاهد الآخر يجلس/ مد القادم يده/ قام الجالس باسطًا راحته...

- أهلاً وسهلاً/

- أهلاً وسهلاً/

- تفضل/

جلس الذي كان جالسًا/ سحب القادم كرسيًا للخلف قليلاً / جلس. نظر في وجه صاحبه مبتسمًا.

- حالك طيب؟!/

- كالعادة!/

رد الجالس الأول. نظر في وجه صاحبه باشًا/

- أليس لديك ما تخبرنا؟!/

سأل القادم/

- لا جديد/ أنت تعرف أن البلد. بلد كساد/

- عن الكساد حدث ولا ملل!/

- كنت أعرف أن الناس تقول حدث ولا حرج!/

- أنت تعرف أنه في هذا البلد صارت الكلمات جوكر!/

ابتسم الجالس الأول.. بانت أسنانه ملطخة بلون بني.. «ولكنه محدث جيد أيضًا/» قال الآخر في نفسه: «ما الذي شاقها فيه؟؟!/» قال الأول: «ليست الوسامة كل شيء!/»/ في أعماق كل منهما شيء/ تحاورا صامتين، أو صمتا متحاورين/ قال الأول: «لقد أخذتها من بين يديه!/»/

قال الذي قدم:

«لقد جاء بعدي على أية حال/»/

«لكني جئت بعد آخرين!/»/

«لا يهم/ الناس تتعاقب!/»/

«هذه هي الدنيا!/»/

- بيتر صودا مع قطعة ليمون، لو سمحت/

- والله ما عندنا!/ أين هو الليمون؟!!/ مقطوع حتى من السوق!/

- لا تحضر ليمونًا إذن!/

- جاءت في الليمون.. بسيطة!/

قال الجالس الأول/

- أين تريدها إذن؟!!/

- لا أريدها في شيء!/ لكنها بسيطة على أية حال!/

«بسيطة!!/ عندما لمحتكما معًا: ذهلت، لأول وهلة/ أنا لا أهتم بها كثيرًا/ لكني كنت أعتقد أنها: لا تنتقل من الحسن إلى السيء!!/ قلت: طيح سعد العار!/ وختمت التفكير في الموضوع بجملتي المعتادة: إلى الجحيم!/»/

«أكاد أحسده على لا مبالاته!/»/

- البيتر / بدون ليمون!/

- شكرًا/ ....!: بسيطة كما قلت!/ جاءت في الليمون، ليس في البيتر!/

ابتسم الآخر.. «لماذا تخلت عنه؟/ لم تخبرني صراحة/ لم ألح عليها/ لعله هو الذي تخلى../»/

- لم تقل لي كيف حالك!/

كان الآخر ممسكًا بالكأس بين راحتيه/ سكب نظراته في السائل الأحمر الفاقع المزروع بفقاقيع غازية صغيرة: «لماذا لا يقنع الناس بالصمت حينما لا يكون الكلام الجيد متيسرًا؟؟!!/»/ رفع نظره/ سلطه على وجهه...

- كيف حالك؟!/

ضحك الآخر ضحكة خفيفة/ فيها اتهام صريح بالغباء..

- ليس هذا ما قصدته!/ أعني: لم تخبرني عن حالك!/

«إما أنه لا يملك حاسة النكتة، أو أني أفتقر إلى روح الدعابة!/»/

- أعرف تمامًا ماذا تعني!/ فقط: كنت أمزح/ أعرف تمامًا ماذا تعني/ أكاد أزعم أني: أدرك فيماذا تفكر الآن!/

«يستدرجني!!/ لا أعتقد أنه يتمتع بموهبة قراءة الأفكار!/»/

- فيماذا أفكر؟!/

«إذا كنت لم أستطع أن أثبت له تمتعي بروح مرحة، فلأحاول أن أثبت له ملكيتي لمقدار طيب من الذكاء والتصرف اللبق!/»/

- قلت أكاد.../ وفي النحو: كاد من أفعال المقاربة/

«يتقاذفني!!/»/

- أنت تعرف أني لا أفهم في النحو/ لا أفهم/ إني أعترف بخجل!/ «لكني ماهر في أشياء أخرى/ لقد لمست ذلك بنفسك!/» لعل لدي ما يعوضني عنه!/

«هذه البسمة الماكرة، وهذا الجزم في نطق الجملة الأخيرة، بعد برهة صمت وتفكير: لا يعنيان إلا شيئًا واحدًا/ هل يظنني متيمًا بها إلى هذه الدرجة؟؟!!/ إلى الجحيم بالاثنين/»/

- دعنا من النحو/ لقد كان مجرد نكتة عابرة/.. لكن هل

تعتقد، حقًا، أنه لديك ما يمكن أن تفتخر به؟؟!/

- أفتخر؟!/

- أعترف أني ... أحيانًا.. لا أتمكن من التعبير عن أفكاري بوضوح وتعيين/ أقول: هل تعتبر ما لديك من مكونات لشخصيتك، كافية تمامًا؟!/ هذا، بالدقة، ما قصدت!/

«مقومات شخصيتي أكثر، وأقوى تأثيرًا مما لديك/ وإلا فما الذي حولها عنك/ كافية تمامًا/ »/

- كافية تمامًا لأي شيء؟!!/

«إلى أين سننتهي بهذا التصادم المقنع؟!/ إنني لا أعيرها اهتمامًا كبيرًا/ لماذا أتصادم معه من أجلها؟!/ »/

- لا أريدك أن تفسر تساؤلي تفسيرًا خاطئًا/ أنا لم أقصد شيئًا سيئًا/ إنه مجرد تساؤل خطر فجأة/ كنت أتساءل عما إذا كنت تشعر بالرضى عن نفسك أو وضعك!/

«أعرف أنه ماكر!؟ لكن ما يدريني أنه قصد الذي اعتقدته؟!/ »/ كان قد عدل من وضع الصحيفة المطوية الغافية تحت مرفقيه، وأراح رأسه بين راحتيه/

- أعتقد ذلك/ تستطيع أن تقول بأني راض عن نفسي/ ليس عن وضعي!/

أخرج كلامه بقسط وافر من التعالي والتعالم/ أخفى وجهه بالصحيفة(*)/ سكب الآخر، مرة أخرى، نظراته في كوب المشروب الذي أوشك على الانتهاء.. كان اللون أكثر نصاعة والسائل أكثر صفاء وأقل فقاقيع/ ثقل الصمت وتفاقم الملل/ جاء النادل/ أخذ الكوب الفارغ/ نظف المنضدة/

- شكرًا/

- العفو/

رد النادل/

صارت لعبة تجنب التقاء النظرات: لعبة مفضوحة ونافذة للسخرية...

«سأخزه قليلاً!/»..

- أهناك شيء هام؟!.. أعني في الصحيفة!/

- ومنذ متى اعتدت أن تجد في هذه الصحف أشياء هامة؟!/

نبرة صوته(**) توحي بأنه تكلف الطبيعية/

- فقط .. تبدو مستغرقًا، بكاملك، في القراءة!!/

طرابلس. بنغازي 72 - 75م

(*) كانت هذه محاولة جادة لتجنب انفضاح ما هو متضمن في النظرات.

(**) تكلم دون أن يغادر وجهه الصحيفة.

كانت الشمس شاهد عيان

ركضا في الانفساح حتى عسر تنفسهما. ارتميا منهكين. تمددا في ارتياح واستطعام. تمرغا تحت لطف الشمس المنهمر وفوق الأعشاب الغضة الحنونة. انتقلت رفوف الأحاسيس الوادعة الضاجة خلال الابتسامات النظرات القهقهات الملامسات المداعبات. قال عصفور شاب لفتاته:

- لو أننا مثلهما: لاستقرينا في مكان رائع حامين أنفسنا، ثم صغارنا، في بيت منيع.

ردت أليفته:

- هل سنكون أسعد منا الآن؟!!.

- سننجو من بنادق الصيادين والفخاخ. وسنترك العصافير تلهو معنا وتنمو وتتكاثر.

- ستخافنا العصافير ولن تأمن لنا!.

قال الولد:

- لو كنا عصفورين: لسبحنا في الفضاء نطوف كون الله الواسع، بدلاً من الجمود في مكان واحد!.

قالت البنت:

- وحين نكبر ويصير لنا أطفال، ألن نستقر في مكان حتى يصيروا قادرين على التطواف؟!!. ثم هل سننجو من بنادق الصيادين وفخاخ الصغار؟!.

- سنطير ونلهو حيث لا يوجد الناس!. سنتمتع برؤية الأشياء من فوق!. نشاهد الغابات.. البحار.. الجبال... الأنهار..

تقاطعه البنت:

- لماذا يقتل الناس العصافير؟!!.

- إنهم يقتلون بعضهم أيضًا! لقد حدثني أبي عن الحروب: كيف يقتل الإنسان بسهولة، وكيف يعم الجوع والمرض ويزمجر الموت في الفجاج. لقد عاش أبي الحروب.

- هل قتل أناسًا؟!!.

- قال أنه لو لم يقتل لما كان موجودًا، ولما كنت أنا!!.

- لكن لماذا يتقاتل الناس؟!!.

- لست أدري!. لكن أبي قال: الحكام يتسلون بإضرام الحرب، ويحترق بنارها المحكومون!.

فجأة زأرت طائرات في الفراغ. حومت العصافير مذعورة. انزعج الطفلان: صاحت البنت سادة أذنيها بهلع.. احتضنها الولد مريحًا رأسها على صدره..

- لا تخافي..

.... فـجـأة (فـجـأة): برز بجـوار الطفلين مـجـموعـة جنود بلوازم المعـركة، فـجـأة، كـأنهم انزلقـوا مع خيوط الشـمس أو انبثقوا من مسام الأرض. ذعـر الطفلان.. حـاولا الهرب.. قبض عليهما الجنود بفولاذية.. قال أحدهم:

- لابد أنكما تعرفان: ما إذا كان يوجد مواقع عسكرية بالقرب.

هز الطفلان رأسيهما أفقيًا. قال الجندي مدققًا في تباهٍ وصرامة:

- لا يوجد، أم لا تعرفان؟!. آه؟!.

قال الولد ببحة الذعر والعجز:

- لا نعرف..

ابتسم الجندي في خبث وتصميم متجهًا صوب البنت:

- أنت لا تعـرف/ .. جـائز!/.. لكن هـي ربما كـانت تـعـرف!/ أو ربما، كنت تعرف ونسيت، وسأتركها تجعلك تتذكر!!..

مد يده إلى صدر البنت. إلى منطقة النهدين.. كان النهد يبدو، تحت الثوب، بحجم ثمرة التين الكبيرة (قليلاً)..

- أنت!.. ألا تعرفين؟!..

حـاولت البنـت التخلص من وقـاحتـه وقـبـضـات الجنود.. جذب ثوبهـا بوحـشـيـة. شـهـقت البنت تحت وطأة الألـم والذل والخـزي.. صاح الولد يائسًا:

- اتركها يا قذر!..

استدار الجندي صوبه:

- قذر!.. آ أه!!؟!!.

أخرج مسدسه.. صوبه نحوه.. ارتجف داخل الولد، وغار اللون منه.. حاول - يائسًا - التخلص من القبضات.. قال الجندي:

- لقد بدوت شجاعًا قبيل قليل!!.. إنك أمام حبيبتك!!.

أحس الولد بأمواج الانهيار تحفر في كل كيانه، وحين أغمض عينيه، مستسلمًا متمنيًا حدوث معجزة ما، سمع صوت طلق ناري وتشنج بدنه الذي ثقب في الصدر وهو: يأوه أوهًا مكتومًا ويخور.. ولولت البنت متفجعة مشيحة عن البدن المضرج المهمل على الأرض. شهقت الشمس مكلومة. تشنج البحر كاظمًا غيظه. بكي نهر من هول الجريمة. وجفت العصافير بالعة الغصة، والتصق كل أليف بأليفته حامين الصغار تحت دفء ونعومة الأجنحة. توجع العشب: لماذا كتب عليَّ أن أتغذى بهذه الدماء الحرام.. وتأوهت الأرض مستفظعة. قال الجندي:

- اسكتي!/.. لا نريد أن نلحقك به!..

استمرت البنت مولولة..

- قلت: اسكتي!!.

استمرت البنت.. صفعها بشراسة:

- اسكتي.

علا نحيبها. مد يده: أزاح بقايا الثوب. انفجر صياحها وانتفض جسدها الطري بين قبضات الجنود.

- سدوا فمها وأمسكوها جيدًا.

- امتدت يده إلى منطقة الحوض: نزع قطعة اللباس.. تملى، مداعبًا، الزغب العسلي الطري الغافي على الضفاف.. أنزل سرواله.. انحنى.. رفعها من ساقيها.. دخل بينهما.. ثنى ركبتيه قليلاً.. صار مركزا الحوضين على مستوى مائل.. نشن جيدًا.. جذبها إليه فجأة، حتى تلامس الحوضان. استقبلت البنت عمود الألم الفاحش داخلها وغامت الدنيا أمام عينيها وهي تحس بأشياء في الداخل تتمزق.. همد البدن بين الأيدي مضرجًا بالعرق والألم والدم والعجز، وارتعش الجندي منتشيًا..

حين بدأ الجنود مغادرة المكان: كان بدن البنت مهملاً مغمورًا في العري والإغماء، والدم يلطخ الفخذين.. قال جندي لرفيقه:

- لم أكن أظنه يملك هذا الحجم!.

- لابد أنك حسدتها!!.

كان فؤاد الشمس ينزف. همهمت مستنكرة: ومع ذلك فأنا أزور بيوت الجميع!! أدخل بيوت القتلة ولا أعتب قبور الضحايا!!! ثم أرعدت غاضبة: لماذا لا أملك أن أقذف بنفسي في المحيط؟؟!!.

تشنج البحر ضاربًا الشاطيء بقبضته ساجنًا جبروته، في حين استمر النهر في بكائه ساخطًا على اليوم الذي نبت فيه. تعجبت الأرض محتجة: مع ذلك فأحشائي تمور بالسعير!!!. ووجم العشب حائرًا مشروخًا مبتئسًا. قالت العصفورة: كنت تتمنى لو كنا مثلهما!!!

القاهرة. طرابلس (13 - 24) -11-1975م

تــلـوين

يقبع البحر، بلونه البرتقالي، عميقًا محايدًا مسالمًا متلهيًا مع نفسه. والزبد يبدو، بلونه الوردي، زاخرًا شهيًا ملذًا. وطيور البحر، البنفسجية والعسلية والشقراء والحمراء والزرقاء والصفراء والمرقطة بالأخضر والبني والأبيض، تعوم في الفراغ تحت السماء الأقل دكنة من لون البحر. وفي البعيد، على انسراح البصر، تلتقي، في عناق ذائبٍ حميم، حقيقة البحر بوهم السماء.

على الشاطيء: الأطفال يمرحون ببراءة وانكباب، تداعب خشونة الرمل الكاكاوي نعومة أقدامهم. والرجال والنساء والفتيان والفتيات: يسبحون بودٍ وامتنانٍ وتداعبٍ وابتهاج، أو يتمددون في استطعام وألفة فوق استفزاز الرمل، تحت حنانٍ ورفاهةٍ دفء الشمس.

وفي أمكنة أخرى: يطمئن العشب، بلونه الأحمر المرح، كثيفًا والعصافير تمارس شهوتها الشبقة في الغناء، والناس يتبادلون أحاديث وابتسامات المودة والتواصل ويمارسون طقوس الحب والعشق.. يعملون في الحقول والمصانع والمشافي والمخابز والحدائق والمطاحن والمقاهي والمسارح والموانئ والمطاعم ورياض الأطفال

والمطارات والمدارس ومحطات السفر والجامعات... لا يوجد عسكر ولا شرطة أو مخابرات أو مباحث أو شرطة آداب أو جمارك أو ما شابه. ليس هناك أسلحة نهائيًا والناس لا يعرفونها أو يسمعون عنها إلا من مصادر تاريخية. وباستثناء الأطباء والممرضين وأولئك المشتغلين بالمجازر والمسالخ وأولئك الذين جرحوا لسبب ما وأولئك الذين شاهدوا مجروحين، فإن أحدًا لا يعرف لون الدم.

طرابلس. (18-12) -2-1976

قبلة التشييع

وهو يقطع الشارع، مغصوصًا بفداحة الانسحاق ممتلئًا بهاجس غامض، لاحظ أن امرأة تنظر إليه بود ولين. هبت نسمة دافئة في برودة دمائه. فكر: «يجب أن أتشبث بشيء يخفف من نهش الشعور بالسقوط». اصطنع بسمة مقتضبة بعثها من خلال غصته.. ردت المرأة بابتسامة عريضة. ازداد هبوب النسيم الدافيء.. «يجب أن أتشبث...». اتجه إليها.. مد يده مرتبكًا:

- مرحبًا..

فوجئت المرأة. مدت يدها متداركة:

- مرحبًا!..

أحس بلمس يدها المستريب المتلعثم. سيطر على نفسه:

- أرجو ألا يكون لديك مانع من أن نتمشى قليلاً.

- نتمشى أين؟!!.

أحس، من نبرتها، أنها تريد أن تحذر من التفكير في أشياء معينة.

- حيث ترتاحين. لن أثقل عليك. سوف نتمشى قليلاً ونتحدث. هذا كل الأمر.

ابتسم مشجعًا. ابتسمت المرأة مطمئنة:

- لا بأس. نتمشى ونتحدث.

سارا معًا. كان الرجل يحس أنها شخص يمكن أن يأنس إليه وينفتح. لم يشغل نفسه، كثيرًا، بالبحث عن بداية للحديث. «اللحظات الأولى مربكة دائمًا. وإذا كانت تأنس حقيقة، فإن الكلام غير ذي أهمية كبرى، كما أنه سينشأ عفويًا».......... أعاده الصمت إلى أساه وانسحاقه: (غمروا رأسه في الماء الحار. صعقوه بالكهرباء. ضربوه بالعصي وقضبان الحديد على قدميه. لسعوا لحمه بالسياط. وضعوه، كثيرًا، في زنزانة منخفضة السقف لا تسمح له بمد قامته، لا تسمح له بالجلوس براحة، حيطانها مغلفة بحصى خشن حاد، يرتفع الماء في أرضيتها حتى الكعبين، مضاءة دائمًا بمصباح يصدر طنينًا وضوءًا أصفر قويًا. كانوا يجبرونه على أن يزحف وينبح «إنك تنبح أفضل من الكلاب!.»، أو ينهق «أنها المرة الأولى التي نتعامل فيها مع حمار!.». «ما أصعب استنطاق حمار!.». أزالوا شعر رأسه بالنار. نتفوا شعر بطنه والأماكن الأخرى نتفًا وحشيًا. كانوا كثيرًا ما يرغمونه على تناول مقدار من الملح، ثم يجردونه من لباسه، ويربطونه واقفًا، وحين يجف لعابه ويستبد به الجفاف يمنعون عنه الماء. يتوسل. يثقل لسانه. يحركه بصعوبة كي لا يلتصق بسقف فمه. ينخرط في العويل. يتسلون بإراقة الماء على الأرض وعلى صدره وساقيه. «ليبصق أحدكم في فمي على الأقل».

يفتح أحدهم بنطلونه: «اعترف أو امتص من هذا». يغرقون في الضحك الداعر.. «أرجوكم. ابصقوا في دمي. أرجوكم. أو فاقتلوني». يفقد القدرة على فتح عينيه أو الكلام. عندها يسعفونه. أطفأوا سجائرهم على عضو الجنس وفتحة الطرد، غزاه المرض والذبول المذيب. لم يعد يحتمل. صار الموت رحمة).

قال الرجل:

- ربما بدا أسلوبي غريبًا. لكني أحب أن أكون صريحًا. إنني أضج بالوحشة والفداحة وأتمنى شخصًا يشعرني بالأنس ويمكنني من لم شتات ذاتي.

ردت المرأة بابتسامة دافئة.

- أرجو ألا يفهم كلامي على غير الوجه الذي أعنيه. إن استئناس امرأة بي يرطب خاطري ببعض المسرة..

كان الرجل يرغب أن تقول شيئًا حنونًا. لكن المرأة ردت بابتسامة.../ خشي أن تكون غير مطمئنة وأنها تشعر بالتورط والندم..

- لعلي أثقل عليك!.

ردت، مطأطئة، بابتسامة خجولة. أحس، في موقفها، بالعفوية والطفولية والود. لكنه كان يريد أن يسمع كلامًا صريحًا.

- لم تجيبي!.

- لا أحد يجبرني على السير معك!.

- أريدك أن تتكلمي كي أشعر بارتياحك حقيقة.

رفعت المرأة رأسها. نظرت إليه مبتسمة:

- حسنًا!. إنك لا تثقل علي، وإني مرتاحة لوجودك معي، لكني لا أجد موضوعًا للحديث. ثم إني مهمومة.

صار تيار الهاجس الغامض أكثر اندفاقًا. أحس برغبة في الهذيان..

- ما أعتى الهم، وأضعف الفرح!.

- لم أفهم!.

- كنت أهذي!.. يضايقك هذا؟!.

- أبدًا!. فقط اعتقدت أنك ترد على كلامي!.

كانا قد وصلا جوار حديقة عامة. قالت المرأة:

- لقد سرت اليوم كثيرًا!.

- نتريح هنا!.

توغلا في الحديقة. جلسا، جنبًا لجنب، على مقعد خشبي. سرح الرجل بتفكيره. كان دائمًا يحلم أن يلتقي بامرأة لا يعرفها ولا تعرفه.. ينجذبان لبعض فجأة.. يتآلفان سريعًا كما لو كانا على علاقة حميمة منذ أمد بعيد.. يعبان من ينابيع الحب والمتعة والهناء

ولا يفـتـرقـان. ضـحك في داخله: «هل صـار بعض أحـلامـي يتـحـقق!!!!.». تـابع، بنظره، أطفـالاً يطاردون بعـضـهم في عنفـوان وسلاسة، ونسوة يبدو أنهن يثرثرن حديثًا مكرورًا، وشبانًا يتسكعون في استيـحـاش ومـرارة.. شعـر بفظاظة الصمت. التـفت إلى المرأة. ابتسمت بخجل وحنان. قال لها:

- أرجو ألا يضايقك هذا الصمت، الذي يبدو أنه لا مفر منه!.

قالت المرأة خافضة رأسها متلهية بفرك كفيها:

- أحيانًا لا يكون الكلام مهمًا كثيرًا ... / ليس الصمت، وحده، هو الذي يجلب الضجر.

«لقد أحدثوا في عطبًا يستحيل إصلاحه. تطاردني الكوابيس حتى في أحلام اليقظة. إني أتخبط في بحر من الإحباط والعجز واحتقار الذات، ولم يبق إلا أن أتشبث بامرأة. لعل هذا يهبني بعض الراحة». وضع يديه في جيبيه مداريًا ارتباكه. أحس بلمس ورقة مثنية. أخرجها. كانت متآكلة في ثنياتها ولونها كالحًا. تفحصها. قالت المرأة فاتحة سبيل الحديث:

- هل بها شيء مهم؟

رد الرجل في مرارة:

- كان مهمًا، ربما؟. شيء كتبته منذ زمن انفصلت عنه. أقرأ عليك؟.

- إذا أحببت. أريد أن أسمع.

قرأ في حسرة:

«البحر صحراء من الزرقة الغافية والماء. وأنا أحضن الأفق وأغني للقادم-المستحيل. أكاشف البحر سري فيريكني بالصمت الذي لا يفصح والإيماءة الغامضة. في غفلة من وجع الحزن أغفو وأحلم بامرأة- مستحيلة».

قالت مداعبة:

- لا أعرف كيف ستكون هذه المرأة المستحيلة!.

- لا أدري!.

- كيف؟!. أنت من يحلم بها!.

- كان ذلك منذ زمن انفصلت عنه!.

- والآن؟!.

- لم أعد أحلم بشيء!.

- غير معقول!!.

- لقد وقعت من قطار الحالمين!.

- لست أفهم!.

قال الرجل محاولاً كظم مرارته والقبض على هدوئه:

- لم أعد أحلم بشيء. إني لم أعد أحلم بشيء. هذا غريب ومفجع، لكني لم أعد أحلم بشيء.

صمتت المرأة. قال الرجل:

- آسف. إني متوتر. آسف جدًا.

- لا عليك. لم يكن من حقي أن أسألك.

- أبدًا. ليس هذا ما أريدك أن تحسي به!.

- إني أعذرك. لك خصوصياتك التي لا ينبغي أن أعرفها.../ من أول لقاء على الأقل!.

صمت الرجل منقبضًا مرتبكًا متحاشيًا النظر إلى المرأة. ظلت المرأة تتأمله بشفقة وحيرة. استغرق الرجل في مراقبة طفلة تطارد عصفورًا صغيرًا. يطير العصفور مسافة قصيرة، ثم يضطر - تحت وطأة التعب والعجز - أن يحط على الأرض. تدركه الطفلة.. تحاول الارتماء عليه.. يفلت، مرتجفًا مصممًا، من بين يديها مبتعدًا قليلاً. تدركه.. ترتمي.. يفلت، بغرابة، مصدرًا صوتًا موجعًا .... تمكنت منه. أمسكته بين راحتيها بحرص وفرح ولطف، وعادت راكضة نحو أمها .... استوقفها الرجل متلطفًا:

- تعالي.. أمسكت عصفورًا.. كيف أمسكته...

ردت الطفلة باعتزاز:

- ركضت خلفه. إنه صغير لا يستطيع الطيران مثل الكبار!.

- هل طاردته طويلاً..

كانت الطفلة قد أمسكت العصفور بيد وأخذت تمسده، بلطف، باليد الأخرى:

- لقد أعياني. كلما أهم بمسكه يفلت مني!.

وقربته إلى صدرها في ابتهاج.

- هل يعجبك كثيرًا؟.

- نعم!.

- ماذا ستفعلين به؟.

- سنذبحه!.

- لكنه صغير وليس به لحم.

- سألعب به.

- يهرب منك أو يموت.

- نضعه في قفص.

- ليس من عصافير الأقفاص. سيموت أو يقتل نفسه.

سكتت الطفلة حائرة.

- أعطه لي وسأعطيك نقودًا.

- ماذا ستفعل به؟!.

- أطلقه يذهب إلى أمه.

- يذهب إلى أمه؟!.

- ألا تقلق عليك أمك إذا لم تعودي إلى المنزل؟!.

- تقلق كثيرًا.

- هو أيضًا له أم تقلق عليه. ولابد أنها تبحث عنه.

مد لها النقود. أحمر وجهها وترددت. ثم تم التبادل وانصرفت ماشية. قالت المرأة مبتسمة:

- ماذا ستفعل به؟!.

- أطلقه يذهب إلى حاله!.

ضحكت المرأة:

- لقد لاحظت الطفلة أنه صغير ولا يقوى على الطيران!.

- يعني .... ؟!.

- يعني أنك إذا أطلقته سيمسكه طفل آخر!.

نظر الرجل في عينيها الودودتين مبتسمًا:

- لقد فاتني ذلك!.

سكتت المرأة منشرحة. نظر الرجل حوله. كانت الطفلة واقفة تراقب ماذا يحدث للعصفور. ناداها الرجل. قدمت بهدوء.

- خذي عصفورك. احتفظي به.

أخذته مسرورة:

- والنقود؟!.

- احتفظي بها.

- لماذا لم تطلقه؟!.

- لقد تعبت كثيرًا حتى أمسكت به!.

ركضت الطفلة مبتعدة. قالت المرأة:

- إنك رقيق!.

قال الرجل متنهدًا:

- كلنا رقيق!.

ردت المرأة ضاحكة:

- لا أقصد ذلك!.

- على أية حال..

قالت المرأة وصوتها صار ملطفًا بنكهة معينة:

- أنت رقيق حقًا، وتبعث حولك نوعًا من الألفة واللطافة.

أنثال شيء في أعماق الرجل: «هل أخيرًا...!!!.../ أ أطرح هجير لهفي المبرح بساطًا، أم أتماسك منتظرًا جودة الغيث...».

- أنت ودودة ومؤنسة، وجميلة.

اكتسى وجهها بحمرة الخجل والاغتباط. قال الرجل:

- إنها صدفة مذهلة أن ألتقي بك اليوم. لعلك لا تدركين مدى اغتباطي بك..

طأطأت المرأة هامشة بخفوت:

- أنا أيضًا.

- أنت أيضًا ماذا؟!.

- أنا أيضًا مغتبطة.

ظل الرجل يتأملها ويباس أعماقه يرتوي غبطة:

«أ أحلم أم أن حلمًا يتحقق!!!! ...». قال لها:

- ما رأيك أن نتمشى على الكورنيش ونراقب البحر..

ردت المرأة وصوتها مترع بالنكهة المعينة:

- تحب مراقبة البحر..!!..

- وأنت معي.

نهضت المرأة. سارا متلاصقين..

- ألم تكن تراقبه قبلاً!..

- معك سيكون للأشياء رونق آخر..

تلاصق الجسدان أكثر.. قالت المرأة:

- قلت، حين التقينا، أنك تتمنى شخصًا يشعرك بالاطمئنان ويجعلك تستجمع ذاتك.

- نعم.

همست:

- يسعدني جدًا لو أستطيع أن أكون هذا الشخص..

أمسك يدها، بغتة، وهو يرتجف من اختضاض الفرح داخله..

- حقًا؟؟؟!!!..

«أصرخ من هول الفرح وأرقص عاريًا كالنبع منفلتًا نشوان كنهود العذارى وكالبوح والموج، أم أكتنز تألقي وأغفو كالطفل في أرجوحة الحنان...». داعب يدها بامتنان..

- إن وجودي مع رجل يحتاج إلى، يخفف كثيرًا من قساوة القبضة التي تعتصر فؤادي.

عاوده، فجأة، تيار الهاجس الغامض. احتفظ بيدها المستسلمة المتوددة دون أن يتكلم. قالت المرأة مداعبة:

- لكني لا أعتقد أني امرأة مستحيلة!.

ضحك وهو يضغط يدها صامتًا. وصلا الكورنيش القريب من الحديقة. ترك يدها واتكآ متلاصقين. كان الأفق ينحني غامضًا مكابرًا والبحر يتمدد متكاسلاً متلذذًا. تذكر رغبته القديمة في أن يسبح هو وامرأة في البحر عاريين، ويركضا على الشاطيء، ساعة الشروق، كمهار البراري، ثم يندغما على وشوشة الموج وابتهاج الرمل، وتذكر أنه جاسد امرأة، في الحلم، مرة وهما يفترشان البحر. لكنه، الآن، يرغب لو يسبح، عاريًا، في خط الشعاع المنعكس المتلالئ في خفوت وكآبة، الذي تنشره البرتقالة المتوهجة بالدم.. ثم

يغرق هنالك، بعيدًا، في اللجة، في سكون ودعة وليونة، كما يغرق الوعي في طراوة النعاس. كانت طيور البحر البيضاء تحوم متفرقة تحت السماء المغبشة.. أحيانًا يسف طير على وجه الماء، ثم يندفع سريعًا صاعدًا في أناقة. تخيل نفسه يتحول إلى طير برتقالي اللون ينطلق، مفجوعًا بالقهر والشوق، صوب الشمس المتوهجة التي تكابد لحظة النزع، ويظل يطير حتى الإنهاك، ثم يسقط في البحر ويغرق في هشاشة الزبد مثلما تغرق أنفاس الرضيع النائم في الصمت. طغى عليه ذلك الهاجس الغامض وصار يكون أطياف إيحاءات وتيارات من القشعريرة في طوايا الشعور وانبثقت بذاكرته سطور حفظها من قصيدة ما:

«كيف التقينا.

كيف اختصرنا مسافة غربتنا في ثوان

كأن جنونك يعرف وجه جنوني

كأنهما أخوان»(❖).

التقت إليها:

- من كان يتوقع هذا اللقاء!!!.

ابتسمت في خجل شفيف:

- المهم أنه وقع!..

(❖) محمد عمران.

أمسك يدها..

- المهم أنه وقع.

ضغطت المرأة على يده..

- يدك باردة!..

صارت أطياف الإيحاءات أقل هلامية والقشعريرة أكثر انثيالاً.

سألها بحزن فجائعي:

- هل سنلتقي ثانية؟!!.

شرد سؤاله انسجامها.. قالت مقطبة:

- ما المانع؟!!؟.

- لدي إحساس بأني سوف لن أتمكن من لقائك.. إنني سعيد بهذا اللقاء على أية حال.

ضغطت يده الباردة في حنان كان يحلم به طيلة حياته..

- أرجوك: لا تفزع روعة اللحظة!.

- لا تؤاخذيني. أحببت، فقط، أن أصارحك بهواجسي.

- هل دائمًا يدك باردة؟!!.

- لا أعرف. لم يحدث أن بقيت في يد شخص آخر بهذه الصورة!!.

- ابتسمت المرأة في ارتياح وتوهج:

- لا تخف. لن أشعر بالغيرة..

- للأسف، حتى لو كنت تغارين، ليس هناك ما يبعث على الغيرة.

ضحكت المرأة:

- تريدني أن أصدق!!.

طبور البحر ما زالت تحوم، والبراح المائي يبدو أكثر سرية وحميمية تحت نعاس وهج الشفق، وقرص الشمس صار كأحمر ما يكون وهو يجهد نفسه في الاحتفاظ برمقه الأخير. قال الرجل:

- ننزل إلى الشاطيء؟.

- أعتقد أن الوقت متأخر.

- لن نمكث طويلاً.

ما زال ممسكًا يدها. ضغط عليها بتوسل:

- ستكون المرة الوحيدة التي تقف فيها معي امرأة على الشاطيء.

وهو يقول «الوحيدة» كان الهاجس الغامض قد وضح تمامًا، وصار يشعر بوخز طفيف في قلبه. قالت المرأة:

- لماذا تقول «الوحيدة»، ولا تقول «الأولى»!!!.

- ننزل؟.

قالت في انصياع ودود.

- ننزل..

ترك يدها. سارا خطوات بمحاذاة الكورنيش. نزلا سلمًا

حجريًا. بين جدار الكورنيش والبحر يستلقي فراغ كبير تتبعثر في جزء منه بعض القوارب والمراكب الصغيرة التي نما حول بطونها العشب وحال لونها وتآكل خشبها، وكان البحر منكفئًا على نفسه يشع غموضًا ولا مبالاة، تحدث أمواجه وشوشة وشهيقًا وزفيرًا زاخرين. ظل الرجل مستغرقًا في ألفة غريبة ينظر إلى الأفق المضرج والطيور اللاهية والزبد الهش والشمس الآفلة، غير غافل عن الوخز المتنامي في القلب. عب من النسيم ا لمترع بروائح السمك والطحلب والملح والكآبة المرجفة. التفت ناحيتها:

- الذي رأى كيف وقع لقاؤنا: ثبت لديه أننا نعيش علاقة منذ زمن بعيد!.

ردت المرأة ضاحكة:

- الحقيقة أن هذا الشخص مصيب إلى حد!.

- كيف؟!.

- لقد أخفيت عليك أني أعرفك، على نحو ما، قبل الآن!.

استشرى الاندهاش في الرجل:

- غريب!!؟..

- لقد تغيرت ملامحك كثيرًا!. تعرفت عليك بصعوبة!.

- غريب!!!... من أين تعرفينني؟؟!!.

- أخي يعرفك. رأيت صورًا لك عنده، ويحدثني عنك أحيانًا. ورأيتك معه مرتين أو ثلاثًا.

سألها عن اسم أخيها. حين ذكرته: ازداد، بغتة، ألم قلبه بشكل حاد. «اعترف أو امتص من هذا». «سوف أعترف. سوف أعترف وبعدها اقتلوني. اقتلوني. اقتلوني. اقتلوني فإني لا أستطيع الحياة بين الناس مطاردًا بلعنة سقوطي»...

- أين هو الآن؟!.

- لقد اختفى منذ شهور. ذهبنا إلى أصدقائه الذين نعرف أماكن سكنهم، فوجدنا بعضهم قد اختفى أيضًا. فيما بعد علمنا أن هناك اعتقالات، والسبب غير معروف!.

لاحظت المرأة أنه انحنى قليلاً ضاغطًا على قلبه براحتيه مغمضًا عينيه عاضًا شفته السفلى.

شعرت بالهلع. أمسكته من كتفيه:

- ماذا بك؟!.. ماذا بك؟!!.

- قلبي . قلبي..

كان يتكلم بعسر..

- أريد أن أتمدد قليلاً.

ساعدته على الجلوس.. ساعدته في أن يتمدد على ظهره. وضعت يدها على يديه الضاغطتين على قلبه..

- سوف أنادي من الشارع أحدًا يساعدني.

أمسك يدها...

- لا داعي.. لا فائدة. حدثتك عن ذلك الإحساس.

ضغطت على يده..

- سوف أنادي أحدًا.

همت بالنهوض. مد يده:

- كلا!... أرجوك.. دعيني أموت بهدوء!..

تذكر أنه كان يقول لأصدقائه بأنه يفضل الموت بين يدي البحر. كان يمزح. لكن كان لديه شعور مبهم بأنه جاد. شعر ببرودة العرق على جبهته وباقي جسمه. أخذ يدها بين يديه.. قربها من شفتيه.. لثمها بلطف وارتياح. مد يده متحسسًا نعومة شعرها..

- إذا رأيت أخاك ثانية، أرجوك ألا تحدثيه عني!.

كانت يده المنهكة المتشنجة لا تزال تداعب شعرها..

- أرجوك.. أريد أن تقبليني قبل أن أموت..

مررت يدها تحت رأسه. ارتكزت بالأخرى على الأرض من الجهة الثانية.. قربت وجهها ببطء.. أخذت شفته السفلى بين شفتيها. أحس بطراوة وارتعاش شفتيها وسخونة وملوحة دموعها.. حين رفعت رأسها أمسك بيدها:

- لا تبكي.

ترك يدها ضاغطًا قلبه منتفضًا من اشتطاط الألم. ازداد نزيف العرق وتغضنت قسمات وجهه. كانت المرأة تشاهد الحالة في

ارتباك ووجع متغلغلين. غامت عيناه وصار يسمع خضيض الأمواج خفيضًا ساحرًا ويحس أنه يهبط، بطيئًا بطيئًا، نحو قاع البحر والبرودة اللطيفة تدغدغ لحمه، ويتوحد والغياب.../ سكن الجسد نهائيًا. انتفضت المرأة مذعورة. أطلقت عويلاً مفجوعًا كان دفينًا. الشمس اختفت تمامًا، وطيور البحر متهيئة للرحيل، وتلفع البحر بظلام شفيف وصوت الأمواج صار أكثر ضجيجًا، في حين تخبو بقايا الشفق في الأفق.

● مقدمة (لرواية شعبي):

«.......................

وكانت خيول الظلام

تحمحم بين الزوايا

وتصهل في كل قفل معلق

وفي كل عروة رعب تلف الرتاج

وتصهل.. تصهل تصهل...

تصبح أصواتها نغمات التوافق

وإيقاع صوت القرار وصوت الجواب»(**).

طرابلس. بنغازي (8/8-10/13) 1976م

(**) محمد عفيفي مطر.

الشيء الذي ينأى

أنغام مفعمة بحزن جارح تنتشر، مختلطة بدخان وبخار ماءٍ مزفور من رئتيَّ، في فراغ الغرفة. وكنت أسمع وقع المطر، خفيفًا، وأتصور انقباض أجساد المارة ووحوحاتهم نتيجة سريان البرد في ضلوعهم، وأحاول أن أتذكر شيئًا، موجعًا وكئيبًا، كأزيز الريح الباردة، لكن ذاكرتي ما أسعفتني. أحسست بالبرد ينساب، ببطء، كثيفًا في قلبي وإحساس بالوحشة يستبد بي ورغبة في البكاء. التفت إليها فجأة:

- أعتقد أن كوبًا من الشاي لا يضر..

أخرجتها من سرحانها.. ابتسمت..

- من ناحية الضرر لا يضر، لكنه متعب، من ناحية التعب.

تظاهرت بعدم سماعها وتلفعت بالصمت. (فهي ستجهزه على أية حال). صرت أتخيل اللون الأحمر الكامد، وهو يشع خافتًا، من خلال زجاج الكوب والبخار الساخن المتصاعد في تمط وكسل يهمس برائحة الليمون الهادئة ثم السخونة الحادة تسيل في

أعصابي وأنا أستوعب الكوب بين راحتيَّ.. قامت. لابد أنها نظرت إلي نظرة تقول: «هل لابد من إتعابي». أو: «بصراحة، أحيانًا تزعجني يا حبيبي». لم تغلق الباب. تسرب تيار بارد. وضعت يديَّ في جيبيَّ وتوحوحت منقبضًا في مقعدي. سمعت ارتطام أوان وانسكاب الماء بعنف. أحسست أنها تتعمد ذلك لتشعرني بعدم رضا وأني أظلمها.. تألمت، قليلاً، في نفسي وقلت: إني لا أظلمها، وإنما أريد أن أظهر لها احتياجي إليها وأني حين أفقدها أفقد الكثير. نقحت: أفقد الكثير جدًا.. قلت: إنها لا تفهمني. آلمني ذلك. قلت: لكنها تحبني. قلت: أنا أفهمها وأحبها.. فكرت: يبدو أن المرأة تتعلق بغموض الرجل، فإذا فهمته ملته!.. قلت: إن ما قلته لحكمة!. قلت: لعلي قرأت هذا في مكان ونسيت. قلت: من الخير لي - إذن - ألا تفهمني. قلت: سأكون غامضًا كالعصفور. لم أرتح للتعبير. قلت: إذن سأكون غامضًا كالدلفين!. ارتحت للتعبير قليلاً. ازداد لسع البرد لقدميَّ. . تنبهت إلى أن الشريط قد تم. قلت: حين تأتي بالشاهي فسوف تقلب الشريط، أو تضع آخر. سمعت خطواتها تقترب في همس.. جهزت بسمة عريضة متوهجة.. دخلت وأغلقت الباب دون أن تنظر إلي. وضعت السفرة على المنضدة القزمة.. كان بها كوبان.. قهقهت متعمدًا. نظرت إلى محاولة أن تبدو عادية:

- هل رويت لنفسك نكتة؟!.

جلست بجانبي. أمسكت يدها متلطفًا:

- تظهر خفة روحك حين تكونين غاضبة.

ردت بنفس نبرتها المحاولة الحياد:

- من قال إني غاضبة!!.

- إذن تظهر خفة دمك حينما لا تكونين غاضبة.

استطعت أن أجعل ابتسامة تفلت منها غصبًا.

- لا تترك شايك يبرد.

تركت يدها.. وضعت السكر في الكوب. وأنا أذوبه، قلت لها:

- حينما لا تكونين معي تسببين لي مشكلة!!.

- ما هي؟.

- لا أجد من أغضبه وأرضيه!.

- لكزتني في خصري.

- هذه، فقط، فائدة وجودي بجانبك؟!.

ملت عليها مستهدفًا شفتيها، لكنها انحرفت بوجهها سريعًا فلثمت شفتاي شعرها. أبعدت، برقة، وجهي بيدها:

- لما أرضى!!.

داعبت شعرها بيدي:

- هل أبالغ إذا قلت إنك عالمي.

- اممم؟!.

- لا تصدقين أم ترغبين أن أكرر الجملة؟.

وملت مستهدفًا شفتيها.. اعترضت وجهي بيدها..

- شايك برد.

- دفئك لا يخمد!.

- تحسبني فرنًا؟!.

تحررت مني. جلست على الأرض بعيدة قليلاً.

- أنت تتعبني دائمًا، وسوف تدفع ثمن ذلك.

أخذت أرشف الشاي الذي فقد كثيرًا من حرارته. تعمدت عدم الاكتراث بها. قلت: سوف تشتعل فيها الرغبة.. أخذت تلهو بعلب الأشرطة، محاولة تنسيقها في شكل هندسي.

- ماذا تبنين؟!.

سكتت. عدت إلى رشف الشاي الذي نزف من حرارته كثيرًا.

- أبني منزلاً!!

كانت قد كونت بالعلب شكلاً يشبه منزلاً تحيطه حديقة.

- سيكون منزلنا مثل هذا.. منزل داخل حديقة كبيرة بها شجر وزهور وأمكنة للعب أطفالنا.. ربما حوض للسباحة، أو حوض للأسماك.. أو يكون بها الحوضان. كانت تتكلم مزيحة، للخلف، العلب التي تمثل سياج الحديقة.

- سيكون لنا ولدان وبنت. أو ولد وبنتان، كي تتآنسا.

نظرت إلى ضاحكة:

- ما رأيك في أن يكون لنا بنتان وولدان!.

كان خاطر أني أوشك أن أتذكر شيئًا كأزيز الريح الباردة يلح علي.. وعاد الإحساس بالبرد المنساب، بطيئًا، بكثافة في خلايا قلبي، وطغت الوحشة والرغبة في البكاء.

همست باكتئاب قاهر:

- أنت تحلمين كثيرًا.

تساءلت منبهتة:

- كثيرًا؟!

- كثيرًا جدًا.

- غريب!.

- للزمن منعطفات وخبايا. إنك تتكلمين وكأنك تقبضين على الأمان. لكن الأمان ينأى.

كنت أتكلم وعيناي مفتوحتان على وجهها الذي صارت سحنته تكلح. برقت عيناها بالدمع. حين طفحتا، طأطأت. فكرت: لابد أن الدموع تخز عينيها الودودتين. أحسست بذلك الوخز في قلبي. بدت حميمة ومشعرة بالتفجع والحنان كعصفور بديع أسلم أعصابه

للإحساس بألم جراحه، وشبت في ذاكرتي ذكرى عصفور صغير، أمسكته عندما كنت طفلاً، أعطيته لأخي الأكبر مني كي يذبحه. عاونته ليتمكن من الذبح، حين تركناه، أنطلق طائرًا. ذهلنا وتحسرت. لكنه أكمل قوس طيرانه على بعد أمتار وأسلم نفسه لجبروت الألم والموت. قلت: هذا، كأزيز الريح الباردة، موجع وكئيب. احتد لسع الملح في حشاشة عيوني وانبثق في أنفي وجع كان يعتريني، أيام الطفولة، عند ابتداء البكاء، وقلت: ليس عارًا أن أبكي في حضرة امرأة.. وخطرت في بالي جملة ظريفة: «رجل غامض كالدلفين: يبكي في حضرة امرأة منكشفة كالواحة!». أخذتها بين أحضاني..

- الأمان ينأى يا حبي.

وامتزجت دموعنا وشهقاتنا.

طرابلس: 5 - 11 - 1976م

القفـــزة

اشرأب بعنقه راصدًا الشمس المنبثقة من خلال رؤوس الشجر، شـاربًا، بعـينيـه، الشـعـاع البـرتقـالي اللين، فـاتحًـا منـخـاريه للهـواء الكثـيف الناعم. أحس أن القلق الذي يسكنه، منذ أيام، مـشـتـتًـا مضطربًا: صـار، اليوم، وكأنه يلف حول مـركز مـحدد. صهل، بغتة، بحدة ناشـرًا ذيله. رفعت بعض الخيول رؤوسـهـا نحـوه. زفـر بعضـهـا بشـدة. عـادت لسـهومهـا وتشـاغلها. صـفع السـيـاج الحـديدي بعنقـه. نظر إلى الخـيـول: كـان بعـضـهـا يقف سـاهمًـا والبـعض الآخـر يقـبـع منكمشًا على الأرض أو يتناول بقايا علف. تمعن في الأجساد. لفتت انتباهه تلك الهفتة في الظهر. كل الخيول التي تقف أمامه الآن: بها تراجع في الظهر. ثنى عنقه للخلف. استشرف ظهره برأسه، بطرف عينه: لاحظ ذلك الانخـفـاض يسـتـقـر حـقـيـقـيًـا ثابتًـا. جـاءوا إليـه: وضعـوا بفـمـه، غـصـبًـا، شـيئًـا صلبًا مـربوطًا بحبل. صـعـد شـخص واستـقـر فوق ذلك المنخـفض، بالذات. جـرى منتفضًـا.. رفع قائمتيـه الأمـامـيـتين عـاليًـا.. أحنى عنقـه رافـعًـا قـائمـتيـه الخلفيـتين.. نتـر جسده بجنون. لـكن الشـخص لم يسـقط. ظل يشـد الحـبل فيؤلم ذلك

الشيء الصلب فكه الأسفل حتى يضطر للتخفيض من نزوته. بعد التكرر: رضخ للأمر الواقع. نظر، ثانية، إلى الأجساد المنخفضة الظهر. مرر نظره على السياج الحديدي. سرح ببصره بعيدًا. طفحت عيناه بالوهج اللاسع. صار القلق يدور، تمامًا، حول مركز ثابت. تمعن، من جديد، في السياج الحديدي. رمى بصره بعيدًا. عاد تفحص السياج. قاس ارتفاعه. فدحه غموض مستفز. فتح ذهنه فاستقر فيه خاطر مكتنز مضغوط كحجارة الأنهار. صهل، في سورةٍ، متعاليًا بعنقه رافعًا قائمتيه الأماميتين. انتبهت الخيول مذهولة. صهل بهدوء مادًا عنقه إلى الأمام، كأنه يومىء إلى الأفق غير المنظور. أصدرت بعض الخيول صوتًا جامدًا خافتًا ممطوطًا، وبقيت تنظر نحوه في استصغار وتحذير. صهل ناشرًا ذيله بعصبية. ركض بمحاذاة السياج. توقف قليلاً. حرك ذيله. نظر إلى الأفق غير المنظور. أحس بتضخم الخاطر. نفض ذيله. سهم قليلاً. حرك ذيله. نظر إلى الأفق غير المنظور. أحس بتضخم الخاطر. نفض ذيله. سهم قليلاً. سار نحو مهرة تبادل معها الود في المدة الأخيرة: حك، بحميمية، عنقه على عنقها.. حمحم في أذنها.. نظر في عينيها.. مسح وجهها بلسانه.. ظلت تنظر إليه مرتبكة.. عضها من عرفها محاولاً جرها. تملصت مصدرة صوتًا خافتًا كئيبًا. وقف وسط الحظيرة. نظر إلى الخيول المشدوهة. صهل. هز ذيله. تراجع حتى لامس السياج. صهل. نظر إلى المهرة. حمحم. طأطأت. نظر بعيدًا.

صهل. زفر. نظر إلى الأرض. رفس الأرض. اندفع خطفًا. للحظة: ومض جسده في الفراغ، فوق السياج، كالبرق.

ركض قليلاً. صهلت المهرة. توقف. عاد بعنقه. حمحمت المهرة. استدار: كانت تمد عنقها خارج السياج. حمحم مومئًا بعنقه إلى بعيد. حمحمت مشيرة بعنقها إلى الحظيرة. صهل صافعًا الأرض بحافريه الأماميين. استدار. ثنى عنقه إلى الخلف. حمحم. عاد بعنقه. صهل. اندلع، عاديًا، بنزق.

حمحمت المهرة. حمحمت. حمحمت. صهلت. أطرقت. صهلت. صفعت الأرض. صهلت. ركضت بمحاذاة السياج شادة اهتمام الخيول. لمع جسدها، تحت وهج الشمس الحاد، في الفراغ فوق السياج، للحظة، كالبرق.

بنغازي (21-23) -12-1976م

اليبـاس

قال الرجل: «إن امرأة ترتدي هذا الثوب تبدو أقرب إلى راقصات الفلامنكو». ألح على مخيلته. فكر: «ستبدو مثل الفراشة العديدة الألوان». منح مخيلته راحة أكثر. فكر: «ستبدو مثل حمامة زاهية الألوان». أتاح لخياله الانسياب. قرر: «ستبدو مثل طير يشبه الطاووس. لكنه يفوقه رشاقة ونعومة». كان الثوب يقف، خلف الزجاج، بوداعة ولا مبالاة. لا ينقصه، في وقفته تلك، إلا أن تدخل فيه امرأة. وكان الرجل منجذبًا، بابتهاج طفولي، إلى تآلف الألوان: الأحمر القلق والأزرق المستريح والبنفسجي المتكتم والبني الكئيب الغافي والبرتقالي النابض الحميم. الألوان تمثل ريشًا منتفشًا في خيلاء وديعة لطائر يشبه الطاووس، لكنه يفوقه رشاقة ونعومة، رسم في اتجاهات متعددة متداخلة. خمن الرجل أن امرأة ترتدي هذا الثوب، يكون عنقها واضحًا كالمنارة، وتقويسة الفتحة تفرج عن إشعاع المنطقة المتاخمة للنهدين، اللذين يكون بوسعهما التعبير عن وجودهما بصيغة أقوى حين يبدوان بشموخ وعصبية كما لو كانا سيطفران إلى الخارج، ثم يبدو قوسا الخصر، بتراجعهما الخجول

إلى الداخل، أكثر إغراء وحميمية. الاتساع المتدرج الذي ينبع من الحوض حتى فوق الكعبين بقليل، سيجعل المشية هينة أنيقة لسيطرته على حركة الساقين، ويعطي، للناظر، إحساسًا بالدفء والليونة والعرى المحجوب. ضبط الصورة في ذهنه: «ستكون مثل غزال الجنة». تحسر: «لو لي عشيقة.. حبيبة.. صديقة.. أنثى من هذا القبيل، أشتريه لها». ظل يتأمل الثوب ويتخيله على امرأة جسدها مكتنز كالدلفين.. «لو هناك ما يبشر بأني سأقيم علاقة مع امرأة، لاشتريته واحتفظت به». «هذا الثوب يجب أن ترتديه امرأة. امرأة تظهر مفاتنه». خطر له أن يحرم نفسه من أشياء كثيرة ويشتريه ليمنحه لأية امرأة تروقه يصادقها. ضحك للخاطر العابث. وهو يهم بالمغادرة، لاحظ فتاة قادمة مثل مهرة طليقة. استبد به الخاطر العابث. اقتربت المهرة. استجمع جسارته:

- يا أخت. يا أخت. لو سمحت..

توقفت .. استفسرت بحركة من رأسها..

- عفوًا. خدمة بسيطة لو سمحت.

همست في ارتباك وارتياب:

- تفضل!..

- لعل الموقف غريب.. اسمحي لي..

تكلمت بصبر نافد:

- تفضل!..

- أريد رأيك في هذا الثوب..

نظرت في وجهه بقسوة واستنكاف:

- العب مع جماعتك!.

بنغازي 17 - 4 - 1977م

ما فوق اليباس

منتهكًا بالوحشة الفظة ومهانًا، انكمش. أشرع يباس القلب لرحمة الريح.

(فلأستقطر شيئًا من الذكرى).

يستعيد، دومًا، وجوه الإناث اللائيْ عرفهن. حتى اللائي ابتسمن له مرة لم يصادفهن بعدها.

(وهل بسمة لم تنهك بكر التذكر).

تنهد:

(يا للهول. كيف عشت كل هذه السنين بدون الحضور الأنثوي).

تنهد:

(يا للهول. كيف سأجابه الحياة بدون امرأة).

قام. سحب، من تحت الفراش، بعض المجلات. ألقم المسجل شريطًا ضاجًا بشراسة أنثى شبقة تتلذذ. أحس بالحرارة تعم بدنه والقلق يكتنف وجدانه حد النسف.

(هذه الحال لا تطاق، وقد يكون من الأفضل لي لو انتحر.

(إن هذا لا يصدق).

فكر:

(ربما كان هذا كابوسًا، وأني سوف أستيقظ لأجد نفسي بين أحضان امرأة تمسح جبيني وتتخلل بأصابعها، شعري).

المرأة، مفجوعة، قالت:

- لقد كنت تنتفض كالذبيح، والعرق يغطي وجهك الكالح.

احتضنها. وضع رأسه بين نهديها واستسلم، كالطفل، لبكاء حقيقي حر...

- لقد حلمت أني أعيش دهرًا طويلاً بدونك!!!

هطلت عليه بحنان عذب شافٍ:

- يا حبيبي!!!. أنا بجانبك!!!.

(ليس كابوسًا مريعًا).

(إنه واقع مريع).

فكر:

(لو امرأة - موجة تنبثق من صدأ ضلوعي. في حضرتي تتبهر. كيف لم أخرج قبل الآن. باكية - ضاحكة تعانقني، فتغسل مهانة العمر.. تغتبط طاقة الروح، وتورق الشهوة والراحة في الجسد الرميم).

تنهد:

(أنا على تخوم الجنون).

أخذ ورقة وقلمًا. كتب:

«أنا

على

تخوم

الجنون

(الجنون).».

فكر:

(أنا أكثر احتياجًا من آدم).

خمن بأنه لو وقف لصق النافذة واندلع يصرخ، بكل لوعته، مستغيثًا فسيشق صراخه كثافة صمت الليل المتواطئ ضده.. يطوف الأحياء ويتسلل إلى الغرف المطراة بالعطر والأحلام ودفء الأجساد الودودة، فمن المؤكد أن تأنس له القلوب الهفهافة وتستجيب. قال:

(أنا لا أشك في وجود القلوب الحنونة).

خيل إليه أنه يحس ببدنه يثقل وأجزائه تتصلب، وأن نظره قد وهن قليلاً، وأن دوارًا بدأ يعتريه. نظر إلى يده. لاحظ أن العروق قد ازداد نفورها وأنها صارت تشبه الأنابيب المعدنية الصغيرة.

ازداد إحساسه بتصلب بدنه. قام، بصعوبة، مرعوبًا. كابد حتى وصل المرآة. هاله أن يشاهد، رغم ضعف بصره، عروق رقبته وقد صارت مثل الأنابيب المعدنية. حاول أن يحرك بدنه، لم يستطع. ذهل. فقدت عيناه القدرة على الحركة. غام كل شيء أمامه وبدأ تنفسه يعسر ويحس وكأنه يتلاشى. اندثر وعيه تمامًا. صار بدنه كله من المعدن المتآكل المغطي بطبقة من الصدأ الكثيف. اختل، لسبب، توازنه. سقط. تناثرت أجزاؤه: أسلاكًا معدنية وأنابيب وتروسًا... واندلق سائل متخثر كثيف السواد.

بنغازي: 9-6-1977م

النسف

• **حالة:**

وهو مستلق فوق السرير المتخاذل، يجبر نفسه على مطالعة شيء ما محاولاً، بذلك، النزوح من اضطهاد الوحشة القاهرة إلى حد أدنى من التوازن المعقول، انتبه إلى أن صديقه على وشك أن يجهز للخروج.

- إلى أين؟.

أجاب بأنه ذاهب إلى فتاة، حكى له عنها، تعرف إليها منذ بضعة أيام، سأله ما إذا كان لا يرى حرجًا في أن يرافقه.

- بالعكس.

شعر، من نبرة صوته ومن تجنبه النظر في وجهه، أنه بوغت بالطلب وأنه يشك في جديته وأنه لا يريده أن يرافقه. لكنه رأى ذهابه معه فرصة لكسر حدة استبداد الوحشة، خاصة وأن غياب الأنثى من حياته هو سبب هذه الوحشة.

- هل تنتظرني حتى أجهز نفسي؟.

- لكن لا تبطئ.

كانت نبرته مبللة بالإحساس بالتورط والندم، وخطر له أن ينثني عن الفكرة إشفاقًا عليه وإحساسًا بعدم جدوى مرافقته له، لكن بدت له المسألة مغرية بشكل ما. قام بدل ملابسه. غسل وجهه. مشط شعره. عاد إلى الحجرة، كان الآخر مستلقيًا على سريره. بدا له أنه يدير في ذهنه خاطرًا لا يعتقد أنه يجرؤ على تنفيذه. تجنب النظر إليه حتى لا يشعره بأنه قد لاحظ تخبطه في الندم والتورط. جلس يرتدي جوربه.

- إلى أين ستذهب؟

بدأت الأمور تتخذ شكلاً سيئًا. عليه - قدر الإمكان - منع ذلك. أجاب دون أن ينظر نحوه، متصنعًا السذاجة واللامبالاة:

- ذاهب معك.

- أنا لست ذاهبًا..

فشل صوته في أن يكون مرحًا. أحس بتفاهة وحراجة موقفه. توقف عن ارتداء جوربه. نظر نحوه..

- ألم تقل إنك ذاهب وأنه بإمكاني مرافقتك؟!.

كان يعول على شيء ما، في الهدوء الذي يتشبث به وفي نظرته ونبرة صوته الذي يحاول أن يكون ودودًا مستريحًا وساذجًا، أن يثنيه عن محاولة تسديد الطعنة الغادرة التي ينوي تسديدها.

- كنت أمزح!.

انتفض واقفًا. كان جرح طعنة قديمة، سددها له، قد اندلع حريقه متضافرًا مع حريق الطعنة الجديدة. شعر بالحرارة والارتعاش في الحلق واللوزتين والشفتين وأسفل الوجنتين والتوتر في عينيه، وصار الغضب يهزه وهو يقف مرتجفًا ينظر إلى الآخر وهو يحاول أن يبدو عاديًا ودودًا مسالمًا في استلقاءته الخادعة تلك. لكن منظره أربكه وجعله يجلس ويردد: «لقد كنت أمزح!». محاولاً رشوته بابتسامة لزجة مقيتة. داهمه شعور بأن ينقض عليه ويقتص منه لكرامته المهانة. لكن، وهو يراقبه من فوق يتخبط في ارتباكه مطأطئًا متخاذلاً عن النظر في عينيه، أحس نحوه بشيء من الرأفة.

• **حـــالة سابقة:**

(أ) تمهيد:

يقف متمليًا وجوه العابرات الفاتنات مفتشًا عن وجه ينث فيه شعورًا بالألفة والود ويحمله على الاعتقاد بأن صاحبته امرأة لا تكسر خاطر شخص مثله. يستوقفها بأدب:

- عدم المؤاخذة وحياتك.

- أفندم!.

- وحياتك. أنا غريب مش من هنا. عندي رغبة نركب قارب ونشم هوا في النيل، بس مش لاقي حد يركب معاي، ومنحبش

نركب بروحي. فـ... إذا مـا وراكش حـاجـة وتتكرمي وتجـبـري بخاطري. (قد تفجأ بالحالة، ترتاب بالأمر، تتردد. لكن ما يبدو في كلامه ووقفته وهيئته ونظراته وابتساماته، من ثقة وهدوء وطيبة وحميمية وسحر وود عميق ودفء مثير، وما يزخر به العرض من إغراء، سيضطرها إلى الموافقة). تأخذه إلى حيث تكترى القوارب. (هي ابنة بلد). يصعد هو أولاً. يمد يده يساعدها على الصعود. (بذلك يكون قد تحسس، بسرعة، ملمس يدها وتحسست ملمس يده. ولذلك فحين ستتلامس يداهما لهدف آخر، فيما بعد، سيكون هذا التلامس السريع بمثابة معرفة سابقة مطمئنة). يجلسان متلاصقين في آخر القارب، بينما صاحب القارب يمضي بهما..

- يا سلام.. تعرفي!. نفسي، من زمان، في فسحة في النيل. هادي أول مرة نركب فيها زورق في نهر!.

- أول مرة بتنزل مصر؟!.

- أول مرة!.

- مرحتش بلد تنية فيها نهر؟.

- لا. ما سافرتش خالص!!.

- ياه!. دا أنت لسه مغمض!.

- أفتح بوجودك!.

(سوف يتكاثر الحديث. لن يسألها عن اسمها ما لم تسأله هي

عن اسمه. لن يسألها عن أي شيء يخصها - أين تسكن، موظفة، طالبة، متزوجة، عازبة.. لن يلمس يدها أو كتفها أو خصرها أو شعرها بيده، حتى لا يبدو متعجلاً ومبتذلاً - للتأني، هنا، ثماره- سيكتفي بأن يتلاصقا في جلستهما تلك. ولذلك فحين يلمسها فيما بعد ستكون متشوقة جدًا ولن تتظاهر بالتمنع). حين تنتهي الرحلة تكون الشمس قد غربت، (لابد أن تكون الرحلة قبل الغروب بقليل، لما لحالة الغروب من إذكاء لتوهج الوجدان)، ويكونان قد مدا جسور الألفة والتوادد بينهما. يذهبان إلى مكان يقترحه. يتخيران ركنًا منعزلاً. يطلبان شرابًا يساعد على الانسجام. يتغزل فيها (دون إسراف). يتحسس يدها في بوح. يمسح شعرها. يداعب وجنتيها. يبثها شجونه (دون ابتذال). تكون قد ارتاحت له تمامًا وانجذبت..

- هتقعد هنا كتير؟..

(هناك احتمال أن تسأل هذا السؤال وهما في القارب - نبهه أحد أصدقائه. لكن اتضح، بعد التدارس، أنه احتمال ضعيف جدًا).

- ثلاثة أربعة أسابيع.

يتغضن وجهها الودود وتتكسر نظراتها..

- يا خسارة. دي مدة قليلة خالص. يا خسارة.

- ما نقدرش - للأسف - نقعد أكثر.

- يا خسارة. خسارة بجد.

يواسيها قليلاً (سوف يجيء إلى مصر كلما سنحت الفرصة وسيلتقيان - اللي يشرب من أمية النيل لابد يعود - سوف يكتب إليها باستمرار..).. يمسك بيدها وهو ينهض..

- نتعشى في الشقة!!.

- حد قلك ها روح معاك الشقة..

- مش أنتي اللي تكسري الخواطر..

- مش أنت اللي تقدر وحدة تكسر خاطرك!.

- دا من حسن إدراكك!..

في الصباح: تحتضنه بشغف وامتنان:

- أنت طفل لذيذ ملتهب.

يحضنها في ابتهاج وبراءة:

- أنت امرأة شاسعة هفهافة.

ملحوظة: حالت ظروف دون تنفيذ المشروع.

(ب) الحالـــة:

أيقظه صديقه. وجد أن عليه أن يريح أمعاءه الغليظة ومثانته من توترها، ويطفئ ظمأه، ويخلص بدنه من الخمول ويقضي على دوار رأسه، بدوش قوي وسريع. (كان قد شرب كثيرًا، البارحة، وأكل جيدًا). صديقاه والفتاة يتجهزون للخروج. قال صديقه الذي أيقظه:

- حاول ألا تتأخر.

وهو يريح أمعاءه، بهدوء، من كدرها، خمن أن الأمر سيأخذ الكيفية التالية: يجلس صديقاه من الأمام. يجلس، هو والفتاة، في المقعد الخلفي. يكون جسده لصق جسدها. إذا أحس أن جسدها قد استأنس بجسده فسوف يعمق هذا التأنس بمداعبة ساقها بساقه والهمس، في يدها، بأصابعه. «سوف يكون ذلك عذبًا جدًا وحميمًا».

- نحن ننتظرك في السيارة، لا تبطئ.

نبهه صديقه (الذي أيقظه) من وراء الباب. وبعد برهة سمع باب الشقة يفتح ثم يقفل. كان صديقاه يتفاوضان مع الرجل حول السعر، وكانت الفتاة تجلس، بسمرتها الهادئة ونحافتها، مستكينة وكأن الأمر لا يمسها. قال صديقه (صاحب السيارة - وكان زار البلاد قبلاً-) للفتاة بأنه يتذكرها جيدًا ويتذكر أنها باتت ليلة بخمس جنيهات وكانوا عددًا أكثر. ردت الفتاة بقليل من الارتباك:

- أنا ماليش دخل، اتفهموا معاه. يقوللي اقعدي، أقعد. روحي، أروح. الفلوس هو اللي هاياخدهم.

في النهاية تم الاتفاق. قال الصديق صاحب السيارة مداعبًا:

- كن نشطًا. سوف لن نتركها تنام. سنعوض ما دفعناه وزيادة.

أحس بالتفاهة والانحطاط. رد على صديقه:

- لا أستطيع أن أشارككما، لا تلذ لي المسألة على هذا النحو.

- وتشكو ، دائمًا، من الحرمان؟؟.

- معذرة. إني أجد الأمر، على هذا النحو، لا إنسانيًا وضد قناعاتي.

- عاشت قناعاتك. نم، كالعادة، مع مخدة. لعلك ترى ذلك أكثر إنسانية.

وهو يرتدي ملابسه، فكر بأن أي استجابة منها، في السيارة، لتودد جسده لجسدها ستكون عظيمة ومؤثرة لأنها صادقة وإنسانية. وحين تذكر جلستها الخانعة والمفاوضات محتدمة حول سعرها، وتذكر قول صديقه: «سنعوض ما دفعناه وزيادة»، شعر نحوها بالحنان والرثاء. خمن بأنها لابد تفكر فيه مستغربة عدم (اشتراكه فيها). «هذا يجعلها ترحب بأي بادرة لطف مني».

لاعتياده، حين يخرج هو وصديقاه في السيارة، أن يجلس في المقعد الخلفي، لأنه يحس براحة أكثر، فقد كان متوقعًا، وهو ينزل الدروج، بأن صديقه سيجلس من الأمام وتجلس الفتاة في الخلف. فكر أن أي استجابة لطيفة منها أو مبادرة تودد (الدفع نحوه بجسدها، إلصاق ساقها بساقه. ملاطفة يده. فتح مجال للحديث معه...) ستثري خاطره، لنبوعها من إعجاب به واقتناع لاغير. لذلك قد يطلب منها أن يلتقي بها. حين وصل السيارة: كان المقعد، الذي بجانب السائق، شاغرًا وسمع صديقه يقول:

- أنت دائمًا تجلس في الخلف. فكرت أنك ربما تحب، هذه

المرة، أن تجلس أمامًا.

أحس أن صوته مغمس في ابتسامة لزجة. حرص ألا ينظر إليه حتى لا يرى تلك الابتسامة المقيتة المرتبكة التي تحاول تغطية أشياء سافرة. جلس صامتًا. كان كمن وقع بغتة ونهض سريعًا متظاهرًا بأنه لم يتأذ.

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

اللغة والشعر والجنة - في القصة

د. نوفل نيّوف

يلجأ عمر الككلي في قصصه الأولى هذه إلى لعبة الهدوء المشحون، توخيًا لاستشفاف المخفي، المؤرق، العميق. يتوسل في ذلك لغة تتصف بشيء من المفارقة، فهي متوترة ومتزنة في آن: بعيدة عن الاسترسال الإنشائي (بمعناه المدرسي)، وعن الخطابة والمجانية واللغو العالي النبرة. وهذا البعد يحفظ للغة طاقتها التواصلية الفعالة، أو ما يمكن أن نسميه بالعدوى الخلابة: هنا نحن لا نقع على ترادف تزييني. ولا على تشبيه بلاغي نافل، أو انفجارات أساسها حقد أو ولع أو حماسة أو انسحاب أو تشف أو ضيق. لغة هذه القصص وليدة جوها الذي يفرضها فرضًا. وحين لا يجد الكاتب معادلاً لغويًا لما يريد التعبير عنه (تركيبًا أو مفردًا أو اشتقاقًا) نراه يتعمد الابتكار أو الاختيار الجريء الواعي لألفاظ لا يحتويها القاموس ولا يقرها اللغويون، وما ذلك تعالم أو تفاصح أو بهرجة، أو ركوب موجة، أو بحث عن الغريب سعيًا وراء الإدهاش.

للقصة، كما نراها عند عمر الككلي في هذه المجموعة، عدد من المستويات التي تتوارد معًا، نابعة من رصانة اللغة المشحونة والغنية بالدلالات. هنا تنتظم الأحداث الصغيرة حبكة مهيمنة ظاهريًا، أي لا تعدو، في حقيقة الأمر، كونها حبلاً صغيرًا ينتشر عليه فضاء الروح وهواجسها المضنية. هنا أيضًا لا مجال للميتافيزيقا، ولا للتهويمات؛ ثمة معايشة كشف لعملية معاناة حبيسة، وليس سردًا أو تقريرًا أو بوحًا شاكيًا بتلك الهواجس والمعاناة. بالتركيز على هذه الحدود الرهيفة تتمكن موهبة عمر الككلي من إقامة علاقة حميمة بين النص والقارئ، أن تصيب الآخر بعدواها الخلابة. تصبح القصة صرخة، لا تعبيرًا عن صرخة، في وجه هذا العالم - صرخة مركبة من وجع الإنسان والحيوان وعناصر الطبيعة معًا: شمسًا وماء وعشبًا. يدمج الكاتب أصواتًا متنوعة وكثيرة في جوقة احتجاج واحدة. سكينة هذا العالم، براءة الأطفال والعصافير وموج البحر - ثم: وعربة ضخمة قوامها العنف والتدمير. ينطرح السؤال تلقائيًا: ما الذي يبعث الوحشية في الإنسان؟!. ليس الأساس هنا التساؤل أو التعجب أو الاستنكار - الأساس ذلك كله، ربما في كلمة واحدة: الرفض. نغمة أسى وأنين سحيق تنثال، عندئذ، من الحروف والفضاء الفني كله. إن رفض حالة الوجود المعبر عنها بكلمة «كساد» (= الملل، العبث، العطالة...) ليس جديدًا على الأدب، ولا سيما الرومانسي والوجودي، إلا أن

عمر الككلي يبث قصصه نفسًا حارًا يزيدنا انخراطًا بالواقع، مما يضفي على قصصه مذاق التفرد.

إن افتقاد الأمان والطمأنينة في اليقظة والحلم، في اختلاط الاثنين معًا، يشكل ديمومة لحن فظيع واحد يتكشف عن إحساس حاد، شديد المضاء، كما في «تلوين». خارج سياق هذا الإحساس، هذا الاحتجاج العضوي، العريق، المشرش في الدم، قد لا يبقى لقصص من طراز «تلوين» و«القفزة» ما يرقى بها إلى درجة الفني، أي ما ينتشلها من وهدة الوصف والشكوى والمقاربات الشعرية... هي قص (= هي فن مقنعة بذاتها، بانبلاج النور منها، وعلى الآخرين أن يفتحوا صدورهم لهذه النسمات الجديدة الثاقبة). ليست قصة عمر الككلي في الحكاية (الحدوتة)، هي في الجديد الذي تخلقه وتشيعه، تبعث فيه الحياة، هي أيضًا ليست في لوحة الأحداث التي قد يظن أنها معنية برسمها، فهي ليست تسلية ولا كلمات متقاطعة، كما أنها ليست طبيعة صامتة - هي، أولاً وأخيرًا، كيان حي نابض. وعلى القارئ أن يرفع رأسه عن مخدته، أن يستقيم في جلسته، وأن يلقي الحجاب عن عقله ومشاعره الناعسة تأهبًا لأن يكتوي بالحياة.

البحث عن دفء بشري، عند منفذ نجاة: حلم بالأمان، بالسعادة، بتجسد أمل بسيط ومستحيل: لقاء بين رجل وامرأة لا يكونان فيه كمن يسرق طعم النعيم ليتحول حنظلاً في الهواء والفم

والتقارير. وحشية في عالم أعد ليكون جنة سلام: نطح حيطان إذن؟ («لم أعد أحلم بشيء»). وحين يدنو ذلك المفتقد يكون الموت بالمرصاد (قبلة التشييع»). لا لأن الكاتب قاس، متشائم أو سوداوي، بل لأن العالم - كما هو - لا يتيح له أن يرى إلا ما يراه حقًا (ذلك محمود درويش يهتف من الضفة الأخرى بكبرياء وتحد، بشعر: «أرى ما أريد»). في عالم بهذه القسوة تذوي الصداقات وتتقلب الصحبة خيانة. لا بديل للسلام والعدل والقانون في عالم جعل بغيضًا بالقوة وبالفعل.

دائمًا نحن أمام حدث كما نعرفه في تفاصيله الحياتية اليومية، وأيضًا أمام الواقع الذي تشف عنه سيرورة السرد... إحساس غامض (فطري؟) بعدائية كامنة في هذا العالم، استمرار في تنويع العزف على الوتر نفسه: فقدان الأمان والخوف من انفلات الوحشية في كل لحظة..

قطعة من الاختناق، من غياب الحياة الحقيقية، وجود لوجود خال من المعنى. عقل ممعن في التأمل، مأسور بالتوق إلى امتلاك إنسانيته (= كينونته، بتعبير إريك فروم). كابوس مستمر، عنوانه البحث عن جسد (= الحرية، الحياة، الثقة بالآخر...)، لذلك تذوب المرأة، لا يعود لها من حضور فعلي، والحياة تتحول إلى مجرد عيش أفقي ثقيل وفارغ يدفع إلى اختصار الطريق إلى هناك - إلى الجنة!.

في هذه القصص نخرج من الرومانسية البدائية، من ديباجة

الدموع وانفجار مفردات الغضب، نخرج إلى رحاب إنشاء إبداعي يحسن تقطير حرارة الخطاب وتطويع الدفقة الشعرية في سياق نثر قصصي فني رفيع.

د. نوفل نيوف

طرابلس تموز 1994

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

الفهــرس

2 - الشيء الذي ينأى:

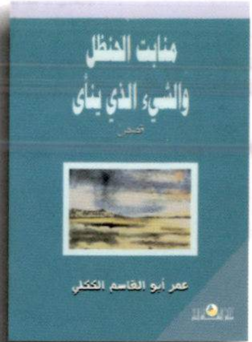
متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

عمر أبو القاسم الككلي:

- مواليد 1953 صفاقس. تونس.
- واصل دراسته إلى السنة الرابعة بقسم الفلسفة بكلية الآداب/ جامعة قاريونس، وانقطعت دراسته لأسباب خارجة عن إرادته.
- بدأ نشر إنتاجه القصصي في الداخل والخارج منذ سنة 1970.
- صدرت مجموعته : «صناعة محلية» عن «الهيئة المصرية العامة للكتاب» سلسلة «كتابات جديدة» سنة 1999، وصدرت طبعتها الثانية عن «الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان» سنة 2000. ثم ترجمت إلى الفرنسية وصدرت بفرنسا سنة 2005 تحت عنوان:

"Le baiser qui se jeta dans la mer"

- كما ترجمت قصص منها إلى الألمانية والروسية.
- يترجم عن الإنجليز وينشر ترجماته في مطبوعات مختلفة.



يقدم مجلس الثقافة العام للقارىء الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًّا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.

مجلس الثقافة العام